القسم الثانى

دراسة فى أصول السيرة النبوية

alheikandl.com

obeikandl.com

بداية الطريق إلى بدر

تحويل أمة المؤمنين فى المدينة إلى جيش

كلنا نعرف السيرة النبوية ، خطوطها الرئيسية أقصد ، وكلنا أيضاً نحب هذه السيرة ؛ لأنها أمتع قصة فى تاريخ الفكر العربى كله ؛ فهى قصة رجل أنشأه الله ممتازاً ، وأكمل امتيازه وإعداده للمهمة الكبرى التى ادخرها الله له : مهمة تبليغ رسالة الله إلى البشر ، والإصرار على أن يؤمنوا بها ، على الرغم من أن معظم معاصريه فى مكة كرهوا هذه الرسالة ، وظنوا أنها تحرمهم من الامتياز المالى الاجتماعى الذى كانوا ينعمون به دون الناس ؛ لأنهم وصلوا إلى قيادة الناس ، وحرية التصرف فى أموالهم بفضل ذكاء رؤسائهم فى مكة منذ دخولهم إياها واتخاذهم لها عاصمة لهم على يد قُصَىٍّ بن كلاب .

ثم جاء بعده ابنه عبد مناف بن قصى ، وكان سياسيًا تاجراً ، فأكمل عمل أبيه ، وورثه ابنه هاشم بن عبد مناف . كان تاجراً وماليًا من الطراز الأول ، وهو الذى نجح فى إقناع قبائل

العرب الواقعة على طرق التجارة بأن مرور التجارة فى أرضها كسب لها ؛ فهى تأخذ منهم ما يريدون بيعه ، وتعطيهم فى مقابله ما يريدون ، ثم كان نجاحه الأكبر عندما نجح فى إقامة الإيلاف ، وهى العقود التى وقعتها قريش مع الروم والفرس والحبش ، بالسماح لقريش فى أن تدخل أراضيها وتتاجر كيفما شاءت ، فى مقابل أن تأتيها قريش بكل ما تريد من جزيرة العرب واليمن والحبشة . وعندما مات هاشم خلفه ابنه عبد المطلب وكان عبقريًا دينيًا ، فجمع كل أصناف الفكر التى كانت عليها العرب قبل الإسلام ، وأنشأ منها عقيدة واحدة تقوم على التسليم بكل معبودات العرب ووثنياتهم ، فى مقابل أن يحج العرب إلى مكة كل عام بعد أن يتلاقوا فى أسواق الحجاز وعكاظ وذى المجاز ومجنة ، ويجمعوا فيها كل ما استطاعوا جمعه من المال ، وعرف القرشيون كيف يجعلون أولئك العرب يحجون بعد ذلك إلى مكة ؛ لينفقوا فيها كل ما جمعوا من أموال وقد وفق عبد المطلب فى ذلك أعظم التوفيق ، حتى سميت عقيدة العرب قبل الإسلام بدين عبد المطلب .

ودين عبد المطلب كلف بنى هاشم وبنى المطلب كل مالهم فهبطت قبائلهم ماليًا وإن عظمت دينيًا ، واجتهدت قبائل عبد

شمس بن عبد مناف وحلفاؤها من مخزوم وسهم وهصيص ومن انضم إليها فى سيادة مكة ماليًا وتجاريًا .

وفى حجر عبد المطلب تربى رسول الله ﷺ ، وكان شديد العناية به ؛ لأنه كان يرجو أن ينصر به دينه ، ولكن الله أعده للقضاء على هذا الدين الوثنى ورفع منار التوحيد مكانه ، فكان ذلك من أعظم مظاهر خذلان الله للكفر وأهله أن يجعل بعد الجد الكافر حفيده المؤمن الذى سيقضى على الكفر كله .

وملاحظة مثل هذه الحقائق فى السيرة النبوية لا تتأتى إلا بالقراءة الكثيرة فى كتب الأصول .

وبين أيدينا الآن أصول كثيرة عن السيرة النبوية ، أقربها إلى النفس مغازى الواقدى ؛ لأن محمد بن عمر الواقدى كتب لنا أوسع كتب المغازى ، وتفاصيل المغازى تعطيك أجمل الصور عن السيرة النبوية ؛ لأن المؤرخ هنا يقترب من الرسول الكريم حتى يصبح منه على أمتار ، الواقدى يحدثك عما يرى عن صدق وإخلاص ؛ لأن رجلاً مثل الواقدى لا يجرؤ على الكذب على رسول الله ، وهو لا يكتب لنا إلا ما يرى أنه الحق فعلاً ؛ ولهذا فانا أقرأ مغازيه فى لذة بالغة ، وأشعر أن مثل هذا الرجل لا يمكن أن يكذب،ولكنك تجد برغم هذا أن المحدثين يرمونه بالكذب والتدليس . لماذا ؟

لأن المحدثين يصرون على أن يتمسكوا بالسند ، ويحكمون على الرجل بإسناد رواياته ، وهم يتمسكون برجال السند واحداً واحداً ، فإذا وجدوا واحداً ضعيفاً رفضوا الحديث ، أو قالوا : إنه ضعيف ، واتهموا صاحبه . والواقدى كانت له طريقة تعجبنى أنا شخصيّا وإن لم تعجب المحدثين ؛ إذ أنه يقول أحياناً ـ كما هى عادته ـ فى كلامه على غزوة أحد : يوم السبت لسبع خلون من شوال على رأس اثنين وثلاثين شهراً ، واستخلف رسول الله ﷺ على المدينة ابن أم مكتوم .

حدثنا محمد بن شجاع قال : حدثنا محمد بن عمر الواقدى، قال : حدثنا محمد بن عبد الله بن مسلم ، وموسى بن محمد بن إبراهيم بن الحارث ، وعبد الله بن جعفر ، وابن أبى سَبْرة ومحمد بن صالح بن دينار ، ومعاذ بن محمد ، وابن أبى حبيبة، ومحمد بن يحيى بن سهل بن أبى حَثْمَة ، وعبد الرحمن بن عبد العزيز ، ويحيى بن عبد الله بن أبى قتادة ، ويونس بن محمد الظفرى ، ومعمر بن راشد ، وعبد الرحمن بن أبى الزناد ، ورجال لم أسمِّ ، فكان قد حدثنى بطائفة من هذا الحديث ، وبعض القوم كان أوعى له من بعض ، وقد جمعت كل الذى حدثونى قالوا .. (مغازى الواقدى ١ / ١٩٩) .

وهذه العبارة التى أوردها فى نهاية الإسناد لا تعجب المحدثين ؛ لأنهم لا يحبون هذا الجمع بين الرواة وإدخال كلام بعضهم ، ولا يعجبهم قط أن يكون هو الذى يختار ؛ لأنهم إذا قبلوا ذلك فماذا يبقى لهم ؟ وهم الذين يصرون على أن يكونوا ميزان الحديث النبوى كله ، أى : نصف العلم الإسلامى ، لابد إذن من أن يكون لهم رأى فى كل زاوية حتى تظل لهم مكانتهم فى تاريخ العلم الإسلامى ؛ لهذا كرهوا محمد بن عمر الواقدى ، واتهموه بالوضع والدجل والتدليس ! بل أيدهم فى ذلك الإمام محمد بن إدريس الشافعى ، وأصر على ضرورة الإسناد ؛ لأنه هو نفسه كان فقيهاً ، حقًا إنه كان إماماً فى الفقه ، ولكن هذا لا يخرجه عن أن يكون فقيهاً .

أما نحن فمؤرخون ، حقًا إننا لا نستطيع القول بأننا لا نتقيد تماماً برأى الفقهاء ، ولكننا نتمسك بأساسية من أساسيات علم التاريخ ، وهى معقولية الخبر ، فما دام الحادث المروى لا نستبعد أن يكون حدثاً فى العصر النبوى فنحن نقبله مبدئيًا، ونضعه موضع الدراسة التاريخية ، وهى دراسة دقيقة جدًا ، بل هى لا تقل فى دقتها عن الأحاديث التى يرويها الفقهاء . وبهذه المناسبة نقول : إن بعض الفقهاء رووا عن رسول الله ﷺ أنه قال ما معناه : « ما أتاكم عنى ومتفق مع القرآن الكريم فهو

منى ، وما أتاكم عنى غير متفق مع القرآن فهو ليس منى » فصاح الفقهاء ـ ومن بينهم الإمام الشافعى ـ : وهذا حديث مكذوب ،والأساس عندنا نحن الفقهاء هو الإسناد ورأينا فى كل اسم يرد فى السند!

ذكرت هذا لكى تعلم موقفنا من الأخبار ، نحن المؤرخين ، ناس عقلاء ومعقولون ، نحن قبل كل شىء مسلمون ومؤمنون ، ولسنا بحفاظ كل شىء عن ظهر قلب ، ولا نعطى ذلك الوزن كله للسند . على هذا الأساس أرجو أيها القارئ أن تأخذ عنى الأخبار التى سترد فى هذه الأحاديث وتعرضها على فكرك ، فإذا قبلها عقلك كان بها ، وإلا فأنت يا سيدى حر ؛ فإن العلم ـ يا أخى ـ حرية . وخذ الخبر التالى ، وقل لى : لماذا ترفضه. وأنت طبعاً قد عرفت حتى وقرأت أن كفار مكة خرجوا لحرب الرسول ﷺ والمسلمين بعد غزوة بدر بعام . ولابد أنك قد سألت نفسك : ولماذا خرجوا فى ذلك الوقت بالذات ؟

لكى أبين لك أهمية هذا السؤال هنا أذكر لك حقيقة أخرى تغيب عمن يقرأون السيرة قراءة سريعة دون تفكير ، وهى أن رسول الله ﷺ منذ استقر فى المدينة المنورة وأحس بحماس الناس للإسلام واستعدادهم للبذل فى سبيله بدأ فى تحويل مدينة الإسلام إلى مركز لحماية الإسلام ونشره ، ووسيلة ذلك

ـ كما رآها ـ هى تحويل الأمة الإسلامية إلى جيش إسلامى . فكل مسلم قادر على القتال ينبغى أن يتعلم الحرب ويملك السلاح ويذوق عظمة الجهاد فى سبيل الله فى الميادين ، فبعد سبعة أشهر فحسب من استقراره فى المدينة وإقامته الإخاء بين المهاجرين والأنصار وشروعه فى إقامة مسجد ، بدأ فى إرسال المسلمين فى السرايا ، والخروج بنفسه لقيادة المسلمين فى المغازى ، وهو هنا لن يرغم أحداً على الخروج للقتال ، ولكنه رأى أن النصر أعظم ما يجذب الناس إلى الميادين . وقد دخلت قبيلة خزاعة فى صداقته ، وأخذ أهلها فى دخول الإسلام ، فاطمأن إلى أن الإسلام يسيطر الآن على الطريق من المدينة إلى مكة ، ويستطيع أن يقبض على رقبة قريش ويخنقها على هينة عن طريق إيقاف التجارة ، ثم التفت إلى شمال المدينة المنورة حيث كانت تسيطر قبائل معظمها من بقايا قضاعة ، وقضاعة كانت القوة العربية الفعالة فى بلاد الشام ، ومعهم بنو كلب بن وبرة ، وقضاعة تفككت مع الزمن وتفرقت إلى قبائل جذيمة وجهينة وبنى بلى وبنى بلقين وقبائل أخرى أقل .

وأهم هذه جهينة التى كانت بلادها تمتد من خيبر تقريباً إلى المدينة ، فبدأ رسول الله ﷺ وأرسل سرية لم تسجلها كتب السيرة ، ولكننا استنتجناها استنتاجاً ، وقاد هذه السرية

عبد الله بن جحش الذى لقبه رسول الله ﷺ عند ذلك (بأبو المؤمنين) ، فهو أول من حمل هذا اللقب الإسلامى العريق . وهذا كان أصله . وعبد الله بن جحش كان جنديّا بطبعه ، فعرف كيف يخيف جهينة ويجعلها تطلب أن يوثق لها رسول الله موثقاً ، فوافق الرسول ﷺ . بهذا أصبحت الأرض من حوالى خيبر إلى المدينة إلى مكة تحت طاعة المسلمين . ثم شرع رسول ﷺ فى إرسال السرايا ، وأول وحدة كانت بقيادة حمزة بن عبد المطلب إلى شاطئ البحر الأحمر ؛ ليؤكد حلف جهينة مع المسلمين ، ولكى تأخذ فكرة عن مهارة رسول الله ﷺ فى الترتيب والتنفيذ ، أى الإدارة ، فاعرف أن غزوة بدر القتال فى ١٧ من رمضان سنة ٢ هجرية كانت التاسعة أو العاشرة بين مغازى رسول الله ﷺ فبدأ باللواء الذى أرسله إلى شاطئ البحر بقيادة حمزة بن عبد المطلب ؛ لتأكيد طاعة جهينة شمالى المدينة ، بعد ذلك بشهر، أى فى شوال ١هجرية خرج لواء عبيدة بن الحارث فى سرية إلى « رابغ » على يوم من المدينة فى الطريق إلى مكة ، وكان عبيدة يقود ستين راكباً ، ووجهته كانت إدراك أبى سفيان ابن حرب ومعه مائتا رجل ما بين راكب وراجل ، وكان قد استقر فى محطة تسمى « أحياء » قرب « رابغ » ، وفوجئ بالمسلمين فى أثره ، والفرق بين المسلمين والمشركين عظيم .

لأن الستين مسلماً كانوا جميعاً أولاً مؤمنين ، ثم كانوا مقاتلين متمرنين ، وكانوا ـ كما رأيت ـ فرساناً فى حين المشركون معظمهم تجار ، ولم يقع لقاء بين الجانبين ، ولكن كان فى المسلمين سعد بن أبى وقاص ، وكان رامياً بالنبال ، وكان فى كنانته عشرون سهماً رماها كلها ، وكل سهم رمى به وقع فى إنسان أو دابة ، فكانت خسارة فادحة للكفار ، وأبو سفيان أحس بأن قريشاً لا تستطيع الثبات للمسلمين فولى هارباً بمن معه ، وقد ملأ الخوف قلبه ، وقرر ألا يخرج فى تجارة إلى الشام بعد ذلك ، كان معنى ذلك توقف تجارة مكة مع الشام، ومع اليمن بالتالى ، وهذا الشلل التجارى الذى أصاب مكة هو الذى رمى إليه رسول الله ﷺ وبعد ذلك بشهر ، أى : فى ذى القعدة سنة ١ هجرية وبعد هجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة بتسعة أشهر فحسب أرسل رسول الله ﷺ سعد بن أبى وقاص إلى الحزار ؛ لأنها ستمر بها عير لقريش ، الحزار قرب الجحفة على ساحل البحر الأحمر ، وصل سعد بعد رحيل المشركين إلى مكة ، لا يهم ؛ لأن رسول الله ﷺ لم يكن يريد إلا إخافة المكيين حتى تقف تجارتهم فيشعروا بالاختناق فى بلدهم .

بعد ذلك خرج رسول الله ﷺ فى غزوته الأولى ، وقد خرج فى نفر قليل فى ذى القعدة سنة ١ هجرية ؛ لكى يرى نتيجة

حملاته السابقة ، ولم يرغم أحداً من أهل المدينة على الخروج معه ، فكان معه عدد قليل ، وقصد الأبواء ، والأبواء تقع على الطريق الفرعى من المدينة إلى مكة ، وكان رسول الله ﷺ يفضل هذا الطريق ؛ لأنه أعسر من طريق التجارة الرئيسى ، أو المسلمون أقدر من غيرهم على السير فى الطرق الوعرة ، ثم إن الأبواء كان فيها قبر آمنة أم رسول الله ﷺ فكان يحب أن يمر بجوار قبر أمه . قرب الأبواء كانت تقيم قبيلة ضمرة ، وهى فرع من كنانة أم قريش ، فعاقدت رسول الله على الحلف والمودة ، ووقعت كتاباً مع رسول الله ﷺ ، وعاد إلى المدينة بعد غياب خمسة عشر يوماً.

وبعد أربعة أشهر ، أى : فى ربيع الأول سنة ٢ هجرية خرج رسول الله ﷺ فى غزوته الثانية إلى بواط قرب الأبواء ؛ ليعترض عيراً لقريش كان على رأسها أمية بن خلف ، وفيها مائة قرشى ، ولم يقع قتال ، ولكن خوف المكيين زاد عندما وجدوا أن تجارتهم على وشك التوقف .

ثم خرج الرسول ﷺ فى غزوته الثالثة فى جمادى الأولى سنة ٢ هجرية وبعد ستة عشر شهراً فحسب من هجرته إلى المدينة ، وقد وصل إلى قرب سهل بدر الذى ستقع فيه الواقعة الفاصلة ، وكان الرسول ﷺ قد خرج يتتبع كرز بن جابر

الفهرى الذى أغار على سرح المدينة ، وسرق بعض الجمال والأغنام على عادة البدو من الإغارة على أراضى الحضر ، ولم يدركه رسول الله ﷺ ولكن كرز بن جابر الفهرى أدرك أنه لا يغامر بعد ذلك بالإغارة على شىء للمدينة ، فهنا جيش من المؤمنين وقيادة ماهرة يقوم بها نبى ورسول من عند الله .

وأعقبتها غزوة قصيرة المدى إلى ذى العشيرة على ثلاثة أميال جنوبى المدينة ، وقد خرج رسول الله ﷺ فى مائة وخمسين أو مائتى رجل إلى ذى العشيرة فى جمادى الآخرة سنة ٢ هجرية ، وبعد ستة عشر شهراً فحسب من هجرته إلى المدينة ، فخافه القرشيون وارتدوا إلى مكة ، أى أن محاولتهم فك الحصار عن أنفسهم فشلت .

وبعد هذه الغزوات والسرايا السبع تأكد رسول الله ﷺ أن رجاله أصبحوا الآن جنوداً وضباطاً مهرة ، وآن الأوان لكى يقوم بعمل حاسم مع قريش ، وإذا كانت السرايا والغزوات السابقة قد نجحت فى إيقاف تجارة قريش وإدخال القبائل فى حلف المدينة أو فى الإسلام إذا أمكن فقد جاء الوقت للقيام بعمل عسكرى يشعر أهل مكة أن المدينة أقوى منها بمراحل ، وأنها الآن تستطيع أن توجه الضربات إلى مكة .

لهذا اختار رسول الله ﷺ أن تكون وجهة السرية القادمة قرية نخلة إلى الشمال من مكة بنحو خمسة أميال ، وكان فيها بستان ـ أى : حدائق ـ عبد الله بن معمر ، وقد اختار رسول الله عبد الله بن جحش لقيادة هذه السرية لمهارته العسكرية ، قال عبد الله بن جحش يروى أخبارِ قيادته لهذه السرية فى رجب سنة ٢ هجرية على رأس ١٧ شهراً من الهجرة إلى المدينة : «دعانى رسول الله ﷺ حين صلى العشاء فقال : واف (أى : تعال) مع الصبح معك سلاحك أبعثك وجهاً . قال : فوافيت الصبح وعلىَّ سيفى وقوسى وجعبتى ومعى درقتى ، فصلى النبى صلاة الصبح بالناس ثم انصرف ، فيجدنى قد سبقته واقفاً عند بابه ، وأجد نفراً معى من قريش . فدعا رسول الله ﷺ أبى بن كعب فدخل عليه ، فأمره رسول الله وكتب كتاباً فى صحيفة من أديم (جلد) خولانى ، فقال لى : قد استعملتك على هؤلاء النفر فامض حتى إذا سرت ليلتين فانشر كتابى ، ثم امض فيه ، قلت : يا رسول الله ، أى ناحية ؟ فقال : اسلك النجدية تؤم ركبة ، فى الأصل ركية ، والركية هى البئر ـ ولكن ركبة كانت سهلاً يقع شمالى مكة مباشرة وفيه تقع قرية نخلة الشامية شمالى مكة وهى المدخل إلى مكة ومن تخطاها فقد دخل (إقليم مكة) .

فتأمل الترتيب والنظام ، كيف اختار رسول الله ﷺ هدف هذه السرية وقائدها ، وكيف أن هذا الرجل قد أصبح قائداً بالفعل، فكل ما قال له الرسول ﷺ كلمات ، ولكنه أدرك أن السرية هذه المرة خطيرة وكل ما قال له الرسول ﷺ : امض إلى أن تدخل سهل ركبة ، وفهم عبد الله بن جحش أن هذا مدخل مكة فقرر أن يكون الوقوف بمن معه عند نخلة على باب قريش ، ولم يأمره الرسول بالقتال ، ولكن القتال كان ممكناً .

وانطلق عبد الله بن جحش حتى إذا كان ببئر ابن ضميرة فنشر كتاب رسول الله ﷺ فقرأه ، فإذا فيه : سر حتى تأتى بطن نخلة على اسم الله وبركته ، ولا تكرهن أحداً من أصحابك على المسير معك ، وامض لأمرى فيمن تبعك حتى تأتى بطن نخلة ، فترصد بها عير قريش .. فلما قرأ عليهم الكتاب قال : لست مستكرهاً منكم أحداً ، فمن كان يريد الشهادة فليمض (فإنى ماض) لأمر رسول الله ﷺ ، ومن أراد الرجعة فمن الآن . فقالوا أجمعون : نحن سامعون ومطيعون لله ورسوله ولك ، فسر على بركة الله حيث شئت . فتأمل هنا فى النظام والطاعة والاستعداد للشهادة.

وعندما جاء نخلة وجد عيراً لقريش مكونة من أربعة رجال، فخاف هؤلاء من المسلمين ، وأراد رجل من المسلمين يسمى

عكاشة بن محصن أن يتأكد القرشيون من أنهم عمار لبيت الله الحرام ، فطلب إلى زميل له أن يحلق رأسه فيرى المشركون أنهم عمار ، فأمن المشركون على أنفسهم ، وقيدوا ركابهم وسرحوها ، واصطنعوا طعاماً .

وشاور المسلمون أنفسهم لأنهم لم يتأكدوا أن كان هذا آخر يوم من رجب أو أول يوم من شعبان (سنة ٢ هـ) فإذا كان هذا آخر رجب لم يكن هناك بأس فى أن يقع ، فقال : أما إذا كان أول شعبان فإن القتال محرم فى الأشهر الحُرُمِ . وغلب رأى الذين أرادوا القتال، فرمى عمرو بن الحضرمى بسهم فقتل واحداً من المشركين ، وأسر المسلمون البقية وأتوا بهم إلى رسول الله ﷺ، فأسلم منهم الحسن بن كيان وحسن إسلامه بعد ذلك .

ثم اعترضت أهل السرية مشكلة كبرى ؛فإن رسول الله ﷺ لم يأمرهم بقتال ، سواء كان هذا الشهر شهر حرام أو لم يكن ، إنما أمرهم أن يتحسسوا أخبار قريش ، وأرسل القرشيون لفداء أسراهم ، وكان سعد بن أبى وقاص ورجل آخر من رجال السرية قد تأخرا عن العودة إلى المدينة ، وأبى رسول الله لهذا أن يفاديهم حتى يطمئن على صاحبيه ، واطمأن على صاحبيه ثم نزلت الآيات ١٩١ وما بعدها من سورة البقرة التى تقول :

﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠) وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١٩١) فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٩٢) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ (١٩٣) الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٩٤) ﴾ (البقرة : ١٩٠ - ١٩٤) .

وهذه الآيات الكريمات حسمت الخلاف بين المسلمين ، فما دامت الحرب مع المكيين الذين اعتدوا على المسلمين وأخرجوهم من ديارهم فإن قتالهم أصبح مشروعاً ، سواء أكان فى الأشهر الحرام أم لم يكن ، فهؤلاء أثاروا بعملهم هذه الفتنة بين المسلمين وغيرهم ، والفتنة أشد من القتل أو القتال، ولكن المسلمين لا يجوز أن يقاتلوا الكافرين فى الأشهر الحُرُم إلا إذا اعتدى الكفار على المسلمين : حتى يقاتلهم المشركون فيه ، والقتال يستمر حتى تنتهى الفتنة ويكون الدين لله ، فإن انتهوا (وطلبوا الصلح) انتهت الحرب معهم ، والعدوان أو الحرب لا

يكون إلا مع الظالمين ، فانظر إلى هذا الترتيب الإلهى المحكم ! ونحن على أبواب بدر ، وقد تحولت المدينة من أمة إلى أمة جيش ، وصار رجالها كلهم متمرنين على القتال ، ومكة قد أحكم عليها الحصار ، ولم يعد لها مفر من الحرب ، وهى بالفعل ستكون المعتدية بخروجها إلى بدر. فهل هناك مدخل لبدر أدق وأعظم منطقية مما وصفنا خطوة خطوة ؟

وهل رأيت كيف أن قراءة السير فى مغازى الواقدى بتفاصيلها الممتعة تجعلك تقترب من رسول الله ﷺ وتسمع صوته ويزداد إعجابك به ؟ وألست ترى الآن أنك ترى السيرة فى صورة هى أجمل مما رواها به ابن هشام ـ وهو فقيه ؟ .

***

فى معركة أحد ..
حول الرسول الهزيمة إلى نصر

وقفت فى حديثى الماضى عند موقعة بدر ، ولكنى لن أتحدث هنا عن بدر ، فقد تحدثت عنها فى كتابى « دراسات فى السيرة النبوية » ، وأنا لا أحب أن أكرر نفسى ؛ ولهذا فسأتحدث هنا عن واقعة أحد .

وقد حدثوك عن غزوة أحد أو موقعة أحد ، وقالوا لك : إنها كانت هزيمة للمسلمين ، أو نصراً للكفار ، وقالوا لك : إن ذلك كان تمحيصاً للمسلمين ، أى : امتحاناً لهم أنهم خالفوا أمر نبيهم ، وهذا حق ، ولكن الواقدى يريك عن طريق روايته الممتعة أن الله ما كان ليترك عباده المؤمنين عند التمحيص أو الامتحان ، بل نصرهم بعد ذلك فى نفس الواقعة . وروايته المفضلة تريك أن موقعة أحد تنقسم فى الحقيقة إلى ثلاث مواقع، الأولى ـ وكانت فى صدر النهار ـ كانت نصراً للمسلمين؛ لأنهم أطاعوا الرسول ، ووقف الرماة على مرتفع « عينين » جنوبى جبل أحد بأمتار ، واستطاعوا بثباتهم ومهارتهم فى

الرمى أن يوقفوا فرسان المشركين عن الهجوم على المسلمين ، وكانت غالبيتهم رجالة ، فلم يكن لديهم إلا فرسان : الأول كان للرسول ﷺ(ولكنه لم يستعمله) والثانى كان للزبير بن العوام. ورماة المسلمين أوقفوا فرسان العدو المشرك عن الهجوم. فإن الخيل ما كانت لتستطيع الهجوم والأسهم تهس فى الهواء حولها ؛ لهذا اكتسح المسلمون العدو ودمروه وولى هارباً والمسلمون فى أقفيته ، فكيف يصف الواقدى هذا المشهد ؟

ولابد هنا أن أورد عليك وصف الواقدى لخروج رسول الله وأصحابه من المدينة إلى ميدان القتال عند جبل أحد فى الشمال؛ لترى كيف حول الرسول ـ صلوات الله عليه ـ أمة المدينة إلى جيش الإسلام ، دون أن يستقدم رجلاً واحداً من خارج المدينة .

قال الواقدى : « ونام رسول الله ﷺ حتى أدلج (حتى الفجر) فلما كان السحر قال رسول الله : أين الأدلاء ؟ من رجل يدلنا على الطريق ويخرجنا على القوم من كثب » ؟

لاحظ أن كل المسافة من المدينة إلى جبل أحد لا تزيد على ثلاثة كيلو مترات . ولكن الرسول كان يريد أن يخرج بقواته عند أقرب المواضع إلى أحد ؛ ليكون ذلك أضمن له على النجاح . لاحظ أن رسول الله ﷺ كان لا يكتفى بالنجاح بل يريد التفوق .

نعـود إلى نص المغازى للواقـدى (١/٢١٨) : فقـام أبو حثـمة الحارثى فـقال : أنا يا رسـول الله .. قال : فخـرج رسول الله ﷺ فركب فرسه فسلك به فى بنى حارثة ، ثم أخذ فى الأموال (أى فى الأراضى المزروعـة داخل المدينة المنورة) حـتى يمر بحـائط مربع بن قيظى ، وكان أعمى البصر منافقاً ، فلما دخل رسول الله ﷺ وأصحـابه حائطه قام يحـثى التراب فى وجـوههم ، وجعل يقول : إن كنت رسول الله فلا تدخل حائطى ، فـيضربه سعد بن زيد الأشـهلى بقـوس فى يده ، فـشـجـه فى رأسـه فنزل الدم . فغـضب له بعض بنى حارثة ممـن هم على مثل رأيه ، فـقالوا : هى عـداوتكم يا بـنى الأشـهـل ، لا تدعـونهـا أبـداً لنا (أى لا تؤيدوننا أبداً) فقال أُسَيْدُ بْنُ حـضير : لا والله ، ولكنه نفاقكم ، والله لولا أننى لا أدرى ما يوافق النبى ﷺ من ذلك لضربت عنقه ومن هو على مثل رأيه . فأسكتوا .

ومضى رسول الله ﷺ فبينا هـو فى مسيره إذ ذَبَّ فرس أبى بردة بن نيـار بذنبـه ، فـأصـاب كُـلاَّب (الـكلاب بضم الكاف : مسمار يكون فى قائم السيف) سيفه ، فسل سيفه ، فقال رسول الله ﷺ: شم (صُن) سيفك ، فإنى إخال السـيوف سَتُسَلُّ ويكثر سلهـا ، وكان رسول الله ﷺ يحب الفـأل ويكره الطِّيرة (فـانظر كـيف كان رسـول الله ﷺ يربى الناس بهـدوء وثبات وثقـة فى النفس. وأحرى بنا نحن أهل السنة أن نتبع رسول الله فى ذلك).

ويتتبع النص مسيرة الرسول وأصحابه حتى خرج إلى موضع أحد عند موضع القنطرة اليوم (كانت هذه القنطرة موجودة فى المدينة إلى أيام الواقدى بل إلى أيام السمهودى (ت ٩١١هـ) فقد ذكرها فى كتابه « وفاء الوفاء ») وقد جاء المسلمون وقد قامت الصلاة ، وهو « رسول الله » يرى المشركين، أمر بلالاً فأذَّن ، فأقام بأصحابه الصبح صفوفاً . وانخذل ابن أبى من ذلك المكان فى كتيبة كأنه هيق (الهيق : ذكر النعام والأنثى : هيقة) يقدمهم ، واتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام فقال : أذكركم الله ودينكم ونبيكم وما شرطتم له أن تمنعوه مما تمنعون منه أنفسكم وأولادكم ونساءكم ! فقال ابن أبى : ما أرى يكون بينهم قتال ، ولئن أطعتنى يا أبا جابر لترجعن ، فإن أهل الرأى والحجا قد رجعوا . ونحن ناصروه ـ أى : ناصرو رسول الله ﷺ ـ فى مدينتنا ، وقد خالفنا ، وأشرت إليه بالرأى ، فأبى إلا طواعية الغلمان . فلما أبَى ابن أُبَيٍّ أن يرجع ودخلوا أزقة المدينة قال لهم أبو جابر : أبعدكم الله ! إن الله سيغنى النبى والمؤمنين عن نصركم .

ونتابع نص الواقدى لنرى كيف يصف لنا مرتفع « عينين » وتعليمات الرسول ﷺ بشأن رماة النبل وضرورة وقوفهم فوقه

إلى نهاية المعركة ، لأن المسلمين لم يكن لديهم إلا فَرَسَان ، أما فُرْسَان المشركين فكانوا مائتين ، ولا يمنع فرسان المشركين عن الهجوم على المسلمين إلا الرماة ؛ لأن الخيل لا تصبر على القتال والسهام تهس حولها . قال : وجعل رسول الله ﷺ يَصُفُّ أصحابه . وجعل الرماة خمسين رجلاً على «عينين » عليهم عبد الله بن جبير ، وقيل : سعد بن أبى وقاص . قال ابن واقد : والثبت عندنا عبد الله بن جبير ، فجعل أحداً خلف ظهره ، واستقبل المدينة ، وجعل « عينين » عن يساره ، وأقبل المشركون فاستدبروا المدينة فى الوادى ، واستقبلوا أحداً ، وأقبل المشركون وقد صفوا صفوفهم ، فاستعملوا على الميمنة خالد بن الوليد ، وعلى الميسرة عكرمة بن أبى جهل (وهما فارسان كبيران ولهما مجتمعين مائتا فرس) وجعلوا على الخيل صفوان بن أمية، وعلى الرماة عبد الله بن أبى ربيعة ، وكانوا مائة رام ، ودفعوا اللواء إلى طلحة بن أبى طلحة (من بنى عبد الدار بن قصى ، وكانوا أصحاب راية قريش دائماً)وجعل رسول الله ﷺ يمشى على رجليه ، فسوى تلك الصفوف ويسوى أصحابه للقتال يقول :

تقدم يا فلان . وتأخر يا فلان . حتى إنه ليرى منكباً خارجاً فيؤخره ، فهو يقومهم كانما يقوم بهم القداح حتى إذا استوت

الصفوف سأل : من يحمل لواء المشركين ؟ قيل : بنو عبد الدار . قال : نحن أحق بالوفاء منهم ، أين مصعب بن عمير ؟ فتقدم بين يدى رسول الله ﷺ ثم خطب رسول الله ﷺ فى أصحابه خطبة هى قطعة من الإيمان والسياسة الإسلامية وترتيب الجيوش للحرب والجهاد ، ونحن ـ أهل السنة ـ جديرون أن نقرأها ونفهمها كلمة كلمة ؛ لأن السنة ليست قواعد شرعية فحسب ، بل هى إلى جانب ذلك قواعد أخلاق ونظام . قال رسول الله ﷺ : « أوصيكم بما أوصانى الله وكتابه من العمل بطاعته والتناهى عن محارمه ، ثم إنكم اليوم بمنزل أجر وذخر لمن ذكر الذى عليه، ثم وطِّن نفسه له على الصبر واليقين والجد والنشاط ، فإن جهاد العدو شديد ، شديد كربه ، قليل من صبر عليه إلا من عزم الله رشده ، فإن الله مع منْ أطاعه ، وإن الشيطان مع من عصاه، فافتتحوا أعمالكم بالصبر على الجهاد ، والتمسوا بذلك ما وعدكم الله ، وعليكم ما أمركم به ، فإنى حريص على رشدكم ، فإن الاختلاف والتنازع والتثبيط من أمر العجز والضعف مما لا يحب الله ، ولا يعطى عليه النصر والظفر . يا أيها الناس جُدِّدَ فى صدرى أن من كان على حرام فرق الله بينه وبينه ،ومن رغب له عنه غفر الله ذنبه ، ومن صلى علىَّ صلى الله عليه وملائكته عشراً ، ومن أحسن من مسلم أو كافر وقع أجره على الله فى

عاجل دنيـاه أو آجل آخرته ، ومن كان يؤمن بالله واليـوم الآخر فعليه الجمعة إلا صبيًا أو امرأة أو مريضاً أو عبداً مملوكاً ، فمن استـغنى عنها استـغنى الله عنه ، والله غنى حميـد . ما أعلم من عمل يقربكم إلى الله إلا وقد أمرتكم به ، ولا أعلم من عمل يقربكم إلى النار إلا وقـد نهـيـتكم عنـه ، إنه قـد نفث فى روعى الروح الأمين أنه لن تموت نفس حتى تستوفى أقصى رزقها ، لا ينقص منه شىء ، وإن أبطأ عنهـا . فاتقوا الله ربكم ، وأجـملوا فى طلب الرزق ، ولا يحملنكم استبطاؤه أن تطلبوه بمعصية ربكم ، فإنه لا يقدر على مـا عنده إلا بطاعتـه ، قد بين لكم الحـلال والحرام غير أن بينهمـا شبهاً من الأمر لم يعلمهـا كثير من الناس إلا من عصم ، فـمن تركهـا حفظ عـرضه ودينه ، ومن وقع فـيهـا كان كالراعى إلى جنب الحمى أوشك أن يقع فيه ، وليس ملك إلا وله حمى . ألا وإن حـمى الله محارمه . والمـؤمن من المؤمنين كالرأس من الجسد إذا اشتكى تداعى له سائر الجسد ، والسلام عليكم ».

فـــانظر ـ والله ـ الربط بـين الروحى والعـــملى فـى خطاب رسول الله إلى المسلمين وهم على وشك أن يدخلوا معركة حربية ينصرون فـيها أمة الإســلام ودين الإسلام معـاً ، ثم تأمل بلاغة أسلوبه وحكمته .

وهنا نجد أن أبا عامر الذى كان يلقب بالراهب قبل الإسلام يخرج إلى ميدان القتال ويقول : يا آل أوس . أنا أبو عامر فقالوا: لا مرحباً بك ولا أهلاً يا فاسق . فقال : قد أصاب قومى بعدى شر . ومعه عبيد أهل مكة فترامـوا بالحجارة هم والمسلمون حتى تواضحوا (أى أصاب بعضهم بعضاً) بها ساعة حتى ولى أبو عامر وأصحابه ، وقد أصبح اسمه أبا عامر الفاسق ، فدعا طلحة بن أبى طلحة إلى البراز .

قال (الواقدى) : « وجعل نساء المشركين قبل أن يلتقى الجمعان أمام صفوف المشركين يضربن بالأكبار (الطبول) والدفاف والغرابيل (الدفوف) ثم يرجعن فيكن فى مؤخر الصف ، حتى إذا دنوا منا تأخر النساء يقمن خلف الصفوف، فجعلن كلما ولى رجل حرضنه وذكرنه قتلاهم ببدر» .

قالوا : وتقدم رسول الله ﷺ إلى الرماة فقال : « احموا لنا ظهورنا ، فإنا نخاف أن نُؤْتَى من ورائنا ، والزموا مكانكم لا تبرحوا منه ، وإن رأيتمونا نهزمهم حتى ندخل عسكرهم فلا تفارقوا مكانكم ، وإن رأيتمونا نقتل فلا تعينونا ولا أن تدافعوا عنا ، اللهم إنى أشهدك عليهم ! وارشقوا خيلهم النبل ، فإن الخيل لا تقدم على النبل ».

وصاح طلحة بن أبى طلحة : من يبارز ؟ فقال علىٌّ ـ عليه السلام ـ : هل لك فى البراز ؟ قال طلحة : نعم ! فبرزا بين الصفين ، ورسول الله ﷺ جالس تحت الراية ، وعليه درعان ومغفر وبيضة ، فالتقيا ، فبدره علىٌّ فضربه على رأسه ، فمضى السيف حتى فلق هامته حتى انتهى إلى لحيته ، فوقع طلحة، وانصرف علىٌّ ـ عليه السلام ـ فقيل لعلى : ألا ذففت عليه ؟ (أى اكملت قتله واخذت سبيه ؟ أى : سلاحه وملابسه) قال : إنه لما صرع استقبلتنى عورته فعطفتنى عليه الرحم ، وقد علمت أن الله تبارك وتعالى سيقتله ، هو كبش الكتيبة ، وكان رسول الله قد رأى فى منامه أن كبش جيش المشركين سيقتل .

ثم يقول الواقدى : إن رسول الله سُرَّ بذلك وأظهر التكبير ، وكبر المسلمون ، ثم شد رسول الله ﷺ على كتائب المشركين ، فجعلوا يضربون حتى نقضت صفوفهم وما قتل إلا طلحة ، ثم حمل لواءهم بعد طلحة عثمان بن أبى طلحة أبو شيبة وهو أمام النسوة يرتجز ويقول :

إن على أهل اللواء حقـًا

أن تخضب الصعدة أو تندقـًا

فتقدم باللواء والنساء يحرضن ويضربن بالدفوف ، وحمل

عليه حمزة بن عبد المطلب ـ رضى الله عنه ـ فضربه بالسيف على كاهله فقطع يده وكتفه حتى انتهى إلى مؤتزره (أى نصفه الأسفل المغطى بالإزار) حتى بدا سحره ، ثم رجع (حمزة) وهو يقول: أنا ابن ساقى الحجيج (أى : ابن عبد المطلب) .

وانهزم المشركون ؛ لأن فرسانهم لم يستطيعوا الهجوم على المسلمين بسبب الرماة ، وكانت هزيمة المشركين كاملة ، فولّوا الأدبار ، والمسلمون فى أعقابهم يقتلون منهم ويسلبون ، ونساء المشركين اللائى كن يضربن الدفوف أصبحن فى متناول المسلمين ، قال واحد من المسلمين : والله إنى لأنظر إلى هند وصواحبها منهزمات ما دون أخذهن شىء لمن أراد ذلك .

قال الواقدى : ولكن المسلمين أُتوا من قبل الرماة .. إن رسول الله ﷺ أوعز إليهم فقال : قوموا على مصافكم هذا فاحموا ظهورنا ، فإن رأيتمونا قد غنمنا لا تشركونا ، وإن رأيتمونا نقتل فلا تفروا . فلما انهزم المشركون وتبعهم المسلمون يضعون السلاح فيهم حيث شاءوا حتى أجهضوهم عن العسكر ووقعوا ينتهبون العسكر قال بعض الرماة لبعض : لم تقيمون هنا على غير شىء ؟ قد هزم الله العدو ، وهؤلاء إخوانكم ينتهبون عسكرهم ، فادخلوا عسكر المشركين فاغنموا مع إخوانكم ، فقال بعض الرماة لبعض : ألم تعلموا أن رسول الله ﷺ قال لكم :

احـموا ظهـورنا فلا تبـرحوا مكـانكم ، وإن رأيتمـونا نقتل فـلا تنصرونا ، وإن رأيتمونا غنمنا فلا تشركونا ، احموا ظهورنا ؟!

فـقـال الآخـرون : لم يرد رسـول الله هذا ، وقـد أذل الله المشركين وهزمهم ، فادخلوا العسكر فانتهبوا مع إخوانكم ، فلما اختلفوا خطبهم عبد الله بن جبـير : فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم أمر بطاعـة الله وطاعة رسوله ﷺ وألا يخـالف لرسول الله أمر ، فمضوا وانطلقوا ، ولم يبق من الرماة مع أميرهم عبدالله ابن جبير إلا نفير ما يبلغـون العشرة ، فيهم الحارث بن أسد بن رافع .. قال : فأبوا وذهبوا إلى معـسكر المشركين ، وخلوا الجبل وجعـلوا ينتهـبون ، وانتـفضت صـفوف المشـركين واسـتدارت رجـالهم وحالت الريح (يريـد ريح الحرب) فكانت أول النهـار إلى أن رجعوا صـبا ، فصارت دبوراً حيث كر المشـركون ، بينما المسلمون ـ وفيهم الرماة ـ قد شغلوا بانتهاب الغنائم .

قال نسطاس مولى صفوان بن أمية ـ وكان أسلم (فيما بعد) وحسن إسلامه ـ يصف هجوم المشركين على المسلمين فى الدور الثانى من معركة أحد : « فإنَّا لعلى ما نحن عليه من الاستسلام إلى أن نظرت إلى الجبل فإذا الخيل مـقبلة ، فدخلوا العسكر فلم يكن أحد يردهم ، قد ضيعت الثغور التى كان بها الرماة وجاءوا إلى النهب ، والرماة ينتهـبون وأنا أنظر إليهم متابطى قـسيهم ،

وجعابهم ، كل رجل منهم فى يديه أو فى حضنه شىء قد أخذه ، فلما دخلت خيلنا دخلت على قوم غارين آمنين ، فوضعوا فيهم السيوف فقتلوا فيهم قتلا ذريعاً ، وتفرق المسلمون فى كل وجه ، وتركوا ما انتهبوا وأجلوا عن عسكرنا ، فرجعنا متاعنا بعد فما فقدنا منه شيئاً ، وخلوا أسرانا ، ووجدنا الذهب فى المعركة ، ولقد رأيت رجلاً من المسلمين ضم صفوان بن أمية إليه ضمة ظننت أنه سيموت منها حتى أدركته به رمق ، فوجأته بخنجر كان معى فوقع ، فسألت عنه بعد فقيل : رجل من بنى ساعدة ، ثم هدانى الله ـ عز وجل ـ بعدُ للإسلام .

وهكذا تحول نصر المسلمين إلى هزيمة ، قال الواقدى : يقول رافع بن خديج : فكنا أتينا من قِبَلِ أنفسنا ومعصية نبينا ، واختلط المسلمون وصاروا يقتلون ويضرب بعضهم بعضاً ، ما يشعرون به من العجلة والدَّهش ، ولقد جرح يومئذ أسيد بن حضير جرحين ، ضربه أحدهما أبو بردة وما يدرى، يقول : خذها وأنا الغلام الأنصارى .

فى أثناء ذلك كله وعلى رغم الفتنة التى أصابت معسكر المسلمين ظل رسول الله ثابتاً مجتمع الرأى كأن شيئاً لم يحدث ، كان إيمانه بالنصر عظيماً . نظر فإذا المسلمون يتهاربون ، وإذا بفرسان المشركين يهجمون على الباقين منهم ، لم يفكر لحظة فى

التراجع ، بل كان مصمماً على البقاء مكانه وإمساك المشركين خارج المدينة ؛ لأنهم لو دخلوها لكان معنى ذلك أن الهزيمة كاملة .

وكانت المسافة بينه وبين جبل أحد نحو عشرين متراً ، وكان هناك ذراع خارج من الجبل نحو ثلاثة أمتار ، وهذا الذراع يسمى الشعب ، ففكر فى أن يسير مع المسلمين إلى هذا الشعب والاحتماء به ، ورد المشركين بالنبال حتى لا يفكروا فى دخول المدينة . كان يعرف أنهم لا يحلمون إلا بإصابته ، وكان واثقاً من أنهم لن يصيبوه ، وكانت الخطوة الأولى فى تنفيذ هذه الخطة هى أن يعود إليه معظم المسلمين . كان ذلك عسيراً ، ولكن رسول الله كان واثقاً منه ، رغم أن المشركين زعموا إذ ذاك أن رسول الله قد قتل ، وكان هذا من أسباب تفرق المسلمين ، وصاح واحد من المسلمين الذين ثبتوا مع رسول الله ﷺ أنه لم يقتل ، وها هو ذا ، فأشار إليه الرسول بأصبعه على فيه أن اسكت . وكان هدفه من ذلك أن يستمر المشركون فى زعمهم أنهم قتلوا رسول الله حتى يظل جهلهم بالموقف . قال الواقدى (١ / ٢٣٦) : « فحدثنى موسى بن شيبة بن عمرو بن عبد الله بن كعب بن مالك ، عن عميرة بنت عبيد الله بن كعب بن مالك عن أبيها قال : لما انكشف الناس كنت أول من عرف رسول الله ﷺ وبشرت به المؤمنين حيًا سويًا . قال كعب : وأنا فى الشعب ،

فدعا رسول الله كعباً بلأمته ـ وكانت صفراء أو بعضها ـ فلبسها رسول الله ﷺ ونزع رسول الله لأمته فلبسها كعب ، وقاتل كعب يومئذ قتالاً شديداً حتى جرح سبعة عشر جرحاً .

حدثنى معمر بن راشد ، عن الزهرى عن كعب بن مالك ، عن ابيه ، قال : كنت أول من عرف رسول الله ﷺ يومئذ ، فعرفت عينيه من تحت المغفر ، فناديت : يا معشر الأنصار أبشروا ! هذا رسول الله ، فأشار إلىَّ رسول الله ﷺ أن أصمت » .

وبعد ذلك بقليل نقرأ عند الواقدى عن ابن أبى سبرة : لما انكشف المسلمون ذلك اليوم نظرت إلى رسول الله ﷺ وما معه إلا نُفير ، فأحدق أصحابه من المهاجرين والأنصار وانطلقوا به إلى الشعب (الذراع الخارج من جبل أحد) وما للمسلمين لواء قائم ولا فئة ولا جمع ، وإن كتائب المشركين لتحوشهم مقبلة ومدبرة فى الوادى ، يلتقون ويفترقون ، ما يرون أحداً من الناس يردهم ،فاتبعت رسول الله ﷺ فأنظر إليه وهو يؤم أصحابه ، ثم رجع المشركون نحو عسكرهم وتآمروا فى «دخول» المدينة وفى طلبنا . فالقوم على ما هم عليه من الاختلاف . وطلع رسول الله ﷺ إلى أصحابه فكأنهم لم يصبهم شىء حين رأوا رسول الله ﷺ .

قال الواقدى :« وأخذ راية الخزرج سعد بن عُبَادة ،

ورسول الله ﷺ قائم تحتها ، وأصحابه محدقون به ، ودفع اللواء إلى أبى الروم العبدرى آخر النهار ، ونظرت إلى لواء الأوس مع أسيد بن حضير ، فناوشوهم ساعة، واقتتلوا على الاختلاط من الصفوف . ونادى المشركون بشعارهم : يا للعزى (يا آل هبل) فأوجعوا ـ والله ـ فينا قتلا ذريعاً ، ونالوا من رسول الله ﷺ ما نالوا ، لا والله والذى بعثه بالحق إن رأيت رسول الله ﷺ زال شبرا واحداً ، إنه لفى وجه العدو ، وتثوب إليه طائفة من أصحابه مرة ، وتتفرق عنه مرة ، فربما رأيته قائماً يرمى عن قوسه أو يرمى بالحجر حتى تحاجزوا . وصبر رسول الله ﷺ وثبت كما هو فى عصابة ثبتوا معه . سبعة من المهاجرين وسبعة من الأنصار ، وبايعه يومئذ ثمانية على الموت: ثلاثة من المهاجرين ، وخمسة من الأنصار ، فلم يقتل منهم أحد ، ورسول الله ﷺ يدعوهم فى أخراهم حتى انتهى من انتهى منهم إلى قريب من المهراس (والمهراس : ماء بين المدينة وأحد) ، قال المبرد : وهو معروف ، أقصى شعب أحد يجتمع من المطر فى نقر كبار وصغار . والمهراس اسم لذلك النقر) وفاء الوفا ، للسمهودى (٢ / ٣٧٩) . وثبت رسول الله رغم أنه أُصِيب أكثر من مرة ، وكان الموقف حرجاً جدًا ، فرسول الله مجروح ، ونحن نعرف أنه وقع فى حفرة ، ثم نهض ، ثم إن ضربة سيف أصابت المغفر فدخلت حلقات منه فى وجه الرسول

ﷺ وظلت داخله حتى استخرجها أبو عبيدة عامر بن الجراح بأسنانه ، وقد فقد فى ذلك ثنيتيه (أى نابيه) ولكن رسول الله ظل ثابتاً رغم ذلك كله ، واستمر يسير نحو الشعب .

وثبت رسول الله ﷺ ، ورمى بالنبل حتى فنيت نبله ، وتكسرت سية قوسه ، وقبل ذلك انقطع وتره ، وبقيت فى يده قطعة تكون شبرا فى سية القوس ، وأخذ القوس عكاشة بن محصن يوتره له ، فقال : يا رسول الله ، لا يبلغ الوتر ، فقال رسول الله ﷺ : مده يبلغ ، قال عكاشة : فوالذى بعثه بالحق ، لمددته حتى بلغ وطويت منه : ليتين أو ثلاثا على سية القوس .

وسار رسول الله وأمامه أبو طلحة ، ثم استدار الرسول ونظر من خلف أبى طلحة ينظر إلى مواقع النبل ، وفى تلك اللحظات نفاجأ بأم سليم بنت ملحان وعائشة وعلى ظهريهما القرب يحملانها يوم أحد ، وكانت حمنة بنت جحش تسقى العطشى وتداوى الجرحى ، وكانت أم أيمن تسقى الجرحى ، فلما لم يجد محمد بن مسلمة عندهم ماء ذهب إلى قناة وأخذ سقاءه حتى استقى من جسى ـ قناة عند قصور التميميين اليوم ـ فأتى بماء عذب ، فشرب رسول الله ﷺ ودعا لمحمد بن مسلمة بخير » .

***

مع المسلمين فى أحد

صور رائعة من جهاد المسلمين والمسلمات

وقبل أن أترك هذه المناسبة من موقعة أحد ، آتيك بفقرة من حديث الواقدى ، تعطينا فكرة واضحة عن الطب والتطبيب فى العصر النبوى ، قال بعد أن ذكر خبر مجىء محمد بن مسلمة بماء عذب شرب منه الرسول ﷺ :

وجعل الدم لا ينقطع (المراد دم الرسول ﷺ فقد كان قد جرح فى المعركة) وجعل النبى ﷺ يقول : لن ينالوا منا مثلها حتى تستلموا الركن ! .. فلما رأت فاطمة الدم لا يرقأ ـ وهى تغسل الدم ، وعلىٌّ عليه السلام يصب الماء عليها بالمجن ـ أخذت قطعة حصير فأحرقتها حتى صارت رماداً ، ثم ألصقته بالجرح فاستمسك الدم . ويقال : إنها داوته بصوفة محترقة، وكان رسول الله ﷺ بعد يداوى الجرح الذى فى وجهه بعظم بال حتى يذهب أثره .

ولقد مكث رسول الله ﷺ يجد وهن ضربة ابن قميئة شهراً أو أكثر من شهر ، ويداوى الأثر الذى بوجهه بعظم بال (الواقدى ١/ ٢٥٠) .

فمداواة الجراح برماد حصير محترق طب حقيقى ، فهو يقفل الجرح إقفالاً سليماً لا ميكروبات فيه . أما مداواة الجروح بالعظم البالى فهذا شىء مما نسميه بالبنسلين فى أيامنا . وطبعاً لم يكن الرسول ﷺ يضع العظم على وجهه ، إنما هو كان يدقه حتى يصير رماداً ثم يرشه على الجرح ، وهذا العظم المدقوق يعتبر اليوم واحداً من أصول البنسلين ، فهل رأيت طبّا هو أدق من هذا ؟ لقد كتب الكثيرون عن الرسول ﷺ والطب ، ولكن أحداً منهم لم ينتبه إلى هذا الخبر الواضح الذى يأتينا به الواقدى ، وهو يصور لنا كيف أن فاطمة ـ رضى الله عنها ـ بنت الرسول ، عندما وجدت أن جرحه لا يرقأ بصب الماء عليه أخذت قطعة حصير وأحرقتها ، ثم كبست بالرماد الجرح فاستمسك الدم ، وهذا طب صحيح ، وكذلك كانت مداواة الرسول ﷺ لجرحه بمسحوق العظم البالى طبّا حقيقاً .

وأنت قرأت كثيراً عن شجاعة رسول الله ﷺ وإليك مثالاً رائعاً لشجاعة الرسول ﷺ ومواهبه فى القتال أنقله عن الواقدى (مغازى ١/ ٢٥١) « قال رواية عن الزهرى وآخرين : لما كان يوم أحد أقبل أبىٌّ بن خلف يركض فرسه ، حتى إذا دنا من النبى ﷺ اعترض له ناس من أصحابه ليقتلوه ، فقال رسول الله ﷺ : استأخروا عنه (وينبغى أن نذكر هنا أن محمداً ﷺ كان إذ ذاك

يقاتل فى عدد قليل جدًا من المسلمين بعد أن تفرق عنه أصحابه نتيجة لهجوم فرسان المشركين على جيش المسلمين بعد أن ترك الرماة مرتفع عينين) فقام رسول الله ﷺ وحربته فى يده ، فرماه ما بين سابغة البيضة والدرع فطعنه هناك ، فوقع أبى عن فرسه ، فكسر ضلع من أضلاعه ، واحتملوه ثقيلاً حتى ولوا قافلين . فمات بالطريق ، فنزلت فيه :

﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ﴾ (الأنفال:٧).

ثم يروى الواقدى نفس الخبر مرة أخرى رواية مفصلة عن يونس بن محمد الظفرى ، وآخرين ، قال : « كان أبى بن خلف قدم فى فداء ابنه ، وكان قد أسر يوم بدر .

وقال : يا محمد ، إن عندى فرساً أجلها (أى : أطعمها بسخاء) فرقا (الفرق يساوى اثنى عشر مدا) والمد يساوى رطلاً وثلثاً ، أى أن هذه الفرس كانت تأكل فى اليوم ستة عشر رطلاً من ذرة» أقتلك عليها ، فقال رسول الله ﷺ : بل أنا أقتلك عليها إن شاء الله . قالوا : وكان رسول الله فى القتال لا يلتفت وراءه ، فكان يقول لأصحابه : إننى أخشى أن يأتى أبى بن خلف من خلفى ، فإذا رأيتموه فأذنونى به ! وإذا بأبىّ يركض على فرسه،

وقد رأى رسول الله ﷺ ، فعرفه . فجعل يصيح بأعلى صوته : يا محمد ، لا نجوتُ إن نجوتَ ؟ فقال القوم : يا رسول الله ، ما كنت صانعاً حتى يغشاك ، فقد جاءك ، وإن شئت عطف عليه بعضنا ، فأبى رسول الله ﷺ ، ودنا أبىّ ، فتناول رسول الله الحربة من الحارث بن الصمة، ثم انتفض بأصحابه كما ينتفض البعير ، فتطايرنا عنه تطاير الشعارير (واحدتها شعراء ، وهى حشرة كالذبابة ولكنها تلسع) ولم يكن أحد يشبه رسول الله إذا جد الجد . ثم أخذ الحربة فطعنه رسول الله ﷺ بها فى عنقه وهو على فرسه ، فجعل يخور كما يخور الثور ، ويقول له أصحابه : يا أبا عامر ، والله ما بك بأس ، فلو كان الذى بك بعين أحدنا ما ضره ! قال : واللات والعزى ، لو كان الذى بى بأهل ذى المجاز (هو سوق مكة الكبير ، وكان على يمين الموقف بعرفة قريباً من كبكب) لماتوا جميعاً . أليس قد قال :«لأقتلنك»؟ فاحتملوه وشغلهم ذلك عن طلب الرسول ﷺ . ولحق رسول الله بمعظَم أصحابه فى الشِّعب ، ويقال : إن خلفا قد وقع إلى الأرض بعد طعن رسول الله إياه . فأقبل أبو دجانة على عُبيد فتناوشا ساعة من نهار ، وكل واحد منهما يتقى بالدرقة ضرب السيف ، ثم حمل عليه أبو دجانة فاحتضنه ، ثم جلد به الأرض ، ثم ذبحه بالسيف كما تذبح الشاة ، ثم انصرف ، فلحق برسول الله ﷺ (الواقدى ١ / ٢٥٢ ـ ٢٥٣) .

أليست هذه صوراً غاية فى الجمال عن موقعة أُحد ، كل ذلك حدث بعد أن انهزم المسلمـون فى أول الثلث الثانى من المعركة ، ثم يقولون لك : إن المسلمين انهزموا فى أُحد ! غير صحيح ، حقًا لقد فرَّ ناس من المسلمين، وقتل بعضهم ، ولكن رسول الله وجلة أصـحابه ثبـتوا ، وها أنت ترى مـاذا فعل الرسـول ﷺ فى ذلك الموقف العسـير ، وكـان طلحة بن عبـيد الله يقـول : « لقد رأيت رسـول الله ﷺ حين انهـزم أصحـابه وكـرَّ المشركـون وأحدقـوا برسـول الله من كل ناحيـة ، فلا أدرى أقـوم من بين يديه أو من ورائه أو عن يمينه أو عن شـماله ، فأذب بالـسيف من بين يديه مرة ، وأخـرى من ورائه حتـى انكشفـوا ، فجعـل رسول الله ﷺ يقول لطلحـة : قد أنجب (أى وفى بنذر) » وقال سـعد بن أبى وقاص ، وذكر طلحة فقـال : « يرحمه الله ! إنه كان أعظمنا غَنَاءً عن رسـول الله يوم أحد ! قـيل : كـيف يا أبا إسحق ؟ قـال : لزم النبى ﷺ وكنا نتفرق عنه ثم نثوب إليـه ، لقد رأيته يدور حول النبى ﷺ يترِّس بنفسه » .

ولا يتسع المجـال هنا لأروى لك ما يقوله الطبـرى والواقدى عن شجـاعة المسلمـين يومئـذ وفى هذا الظرف العسـير بالذات عندما أحاط المشـركون برسول الله ﷺ يريدون قتله ، فـاستهلك الصـحابة فى الدفـاع عن الرسول ، وأظهـر طلحة بن عـبيـد الله

وأبو دجانة والحباب بن المنذر بن الجموح شجاعة نادرة ، وفى وصف شجاعة هذا الأخير يقولون : « وإنه ليحوشهم ـ أى: يحوش المشركين عن رسول الله ـ يومئذ ، كما تحاش الغنم ، ولقد اشتملوا عليه حتى قيل : قد قتل ! ثم برز بالسيف فى يده وافترقوا عنه ، وجعل يحمل على فرقة منهم فيهربون منه إلى جمع منهم ، وصار الحباب إلى النبى ﷺ ، وكان الحباب يومئذ معلماً بعصابة خضراء فى مغفره » .

ثم انظر إلى شجاعة شماس بن عثمان : وقال رسول الله ﷺ: « ما وجدت لشماس بن عثمان شبهاً إلا الجُنة ، يعنى مما يقاتل عن رسول الله ﷺ يومئذ ، وكان رسول الله لا يرمى يميناً ولا شمالاً إلا رأى شماساً فى ذلك الوجه يذب بسيفه حتى غُشِى رسول الله ﷺ فَترس بنفسه دونه حتى قتل ، فذلك قول النبى ﷺ : ما وجدت لشماس شبهاً إلا الجُنَّة » .

ثم انظر إلى ما فعله مخيريق اليهودى يوم أحد ، وكان كافراً ، فقال : يوم السبت ورسول الله ﷺ بأحد يا معشر يهود ، والله لتعلمون أن محمداً نبى وأن نصره عليكم لحق ؟ قالوا : إن اليوم يوم السبت ! قال : لا سبت . ثم أخذ سلاحه ، ثم حضر مع النبى ﷺ فأصابه القتل ، فقال رسول الله ﷺ : مخيريق خير يهودَ ، وقد كان مخيريق حين خرج إلى أحد قال : إن أصبت

فأموالى لمحمد يضعها حيث أراد الله ، فهى عامة صدقات النبى ﷺ .

وقيل : إن رسول الله ﷺ قال لجابر (بن عبد الله) : ياجابر، ألا أبشرك ؟ قال : قلت : بلى ، بأبى أنت وأمى ؟ قال : فإن الله أحيا أباك ، ثم كلمه كلاماً ، فقال : تمنَّ على ربك ما شئت . قال : أتمنى أن أرجع فأقتل مع نبيك ، ثم أحيا فاقتل مع نبيك ، قال : إنى قد قضيت أنهم لا يرجعون .

ولكن الأخبار التى تعجبنا هنا وتستوقف اهتمامنا هى أخبار جهاد النساء وقيامهن فى تلك المناسبة بالحرب والضرب كأقوى وأعنف ما يفعل الرجال ، وهذا أمر يدهش له الرجال ، وخاصة أولئك الذين يسيئون الظن بالنساء ، ويرون أنهن لا يمكن أن يرتفع مكانهن إلى مقام الرجال ، وأنت قد سمعت طبعاً عما أظهرته أم عمارة ، وهى نُسيبة بنت كعب فى مناسبة انتقال الرسول بالمسلمين من الهزيمة إلى النصر ، ووقوفه وحده فى مواجهة المشركين حتى ارتدّ إليه المسلمون ، وأخذ يقودهم نحو الشِّعب فى جبل أحد حتى يحول بين المشركين ودخول المدينة .

فاقرأ إذن ما يحكيه الواقدى عن بطولة نساء المسلمين فى يوم أحد (١ / ٢٦٨ ـ ٢٦٩) :

قالوا : « وكانت نُسيبة بنت كعب أم عمارة ، وهى امرأة غزية بن عمرو ، وشهدت أُحداً هى وزوجها وابناها . وخرجت ومعها شَنٌّ لها فى أول النهار تريد أن تسقى الجرحى ، فقاتلت يومئذ وأبلت بلاء حسناً ، فجرحت اثنى عشر جرحاً بين طعنة برمح أو ضربة بسيف » .

فكانت أم سعد بنت سعد بن ربيع تقول : دخلت عليها فقلت لها : يا خالة ، حدثينا خبرك ، فقالت : « خرجت أول النهار إلى أُحد ، وأنا أنظر ما يصنع الناس ، ومعى سقاء فيه ماء ، فانتهيت إلى رسول الله ﷺ ، وهو فى أصحابه ، والدولة والريح للمسلمين ، فلما انهزم المسلمون انحزت إلى رسول الله ﷺ فجعلت أباشر القتال وأذبُّ عن رسول الله ﷺ بالسيف ، وأرمى بالقوس حتى خَلَصت إلىَّ الجراح ، فرأيت على عاتقها جرحاً له غور أجوف ، فقلت : يا أم عمارة ، من أصابك بهذا ؟ قالت : أقبل ابن قميئة (وهو الذى جرح النبى ﷺ) وقد ولَّى الناس عن رسول الله ﷺ يصيح : دلونى على محمد ، فلا نجوت إن نجا ، فاعترض له مصعب بن عمير وأناس معه ، فكنت فيهم ، فضربنى هذه الضربة ، ولقد ضربته على ذلك ضربات ، ولكن عدوَّ الله كان عليه درعان ، قلت : (المتكلم هنا هى أم سعد بنت سعد بن ربيع) يَدُك ما أصابها ؟ قالت : أصيبت يوم اليمامة ،

لما جعلت الأعراب ينهزمون بالناس ، نادت الأنصار : أخلصونا، فاخلصت الأنصار فكنت معهم ، حتى انتهينا إلى حديقة الموت (بستان كان باليمامة ، وكان مسيلمة الكذاب قد احتمى به وتترس بأسواره) فاقتتلنا عليها ساعة حتى قتل أبو دجانة على باب الحديقة ، ودخلتها وأنا أريد عدو الله مسيلمة ، فيعترض لى رجل منهم فضرب يدى فقطعها ، فوالله ما كانت له ناهية ولا عرجت عليها حتى وقفت على الخبيث مقتولاً، وابنى عبد الله بن زيد المازنى يمسح سيفه بثيابه ، فقلت : قتلته ؟ قال: نعم ! فسجدت شكراً لله » .

وكان ضمرة بن سعيد يحدث عن جدَّته ، وكانت قد شهدت أُحداً تسقى الماء ، قال : سمعت النبى ﷺ يقول : لمقام نُسيبة بنت كعب اليوم خيرٌ من مقام فلان وفلان ، وكان يراها يومئذ تقاتل أشد القتال ، وإنها لحاجزة ثوبها على وسطها ، حتى جُرِحَتْ ثلاثة عشر جرحاً ، فلما حضرتها الوفاة كنت فيمن غسلها ، فعددت جراحها جرحاً جرحاً ، فوجدتها ثلاثة عشر جرحاً ، وكانت تقول : إنى لأنظر إلى ابن قميئة ـ وهو يضربها على عاتقها ـ وكان أعظم جراحها ، ولقد داوته سنة ، ثم نادى منادى النبى ﷺ إلى حمراء الأسد ! فشدَّت عليها ثيابها ، فما استطاعت من نزف الدم ، ولقد قضينا ليلنا نكمد الجراح حتى

أصبحنا . فلما رجع رسول الله ﷺ من الحمراء ما وصل إلى بيته حتى أرسل إليها عبد الله بن كعب المازنى يسأل عنها ، فرجع إليه يخبره بسلامتها ، فسر النبى ﷺ بذلك .

حدثنا عبد الجبار بن عمارة ، عن عمارة بن غزية قال : قالت أم عمارة : قد رأيتنى ـ وانكشف الناس عن رسول الله ﷺ ـ فما بقى إلا نفير لا يتمون عشرة ، وأنا وابناى وزوجى بين يديه نذب عنه ، والناس يمرون به منهزمين ، ورآنى (رسول الله) ولا ترس معى ، فرأى رجلاً مولياً معه ترس ، فقال : يا صاحب الترس : ألق ترسك لمن يقاتل ، فألقى ترسه ، فأخذته فجعلت أترِّس عن رسول الله ﷺ ، وإنما فعل بنا الأفاعيل أصحاب الخيل لو كان رجّالة مثلنا أصبناهم إن شاء الله ، فيقبل رجل على فرس فضربنى ، ترست له فلم يصنع سيفه شيئاً وولَّى . وأضرب عرقوب فرسه فوقع على ظهره ، فجعل النبى ﷺ يصيح : يا ابْنَ أم عمارة ، أمك ! أمك ! قالت : فعاوننى عليه حتى أوردته شَعُوبَ .

وحدثنى ابن أبى سبرة ، عن عمرو بن يحيى عن أبيه ، عن عبد الله بن زيد ، قال : جرحت يومئذ جرحاً فى عضدى اليسرى، ضربنى رجل كأنه الرفل (النخلة الطويلة) ولم يعرج علىّ ومضى عنى ، وجعل الدم لايرقأ ، فقال رسول الله ﷺ : اعصب

جرحك ! فتقبل أمى إلىّ ومعها عصائب فى حِقْوَيْها قد أعدتها للجراح ، فربطت جرحى والنبى ﷺ ينظر ، ثم قالت : انهض يابنى فضارب القوم ، فجعل النبى ﷺ يقول : ومن يطيق ما تطيقين يا أم عمارة ! قالت : وأقبل الرجل الذى ضرب ابنى ، فقال رسول الله ﷺ هذا ضارب ابنك . قالت : فأعترض له فأضرب ساقه فَبَرَكَ ، فرأيت رسول الله يبتسم حتى بدت نواجذه. ثم قال : استقدت يا أم عمارة ! ثم أقبلنا عليه نعلوه بالسيوف حتى أتينا على نفسه ، قال النبى ﷺ : الحمد لله الذى ظفرك وأقر عينك، وأراك ثأرك بعينك .

« حدثنا يعقوب بن محمد عن موسى بن ضمرة بن سعيد عن أبيه قال : أتى عمر بن الخطاب بمروط (جمع مرط ، وهو الكساء من صوف أوخز) فكان فيها مرط واسع جدًا ، فقال بعضهم : إن هذا المرط لثمنه كذا وكذا ، فلو أرسلته إلى زوجة عبد الله بن عمر صفية بنت أبى عبيد ، فقال : أبعث به إلى من هو أحق منها : نسيبة بنت كعب . سمعت رسول الله ﷺ يوم أحد يقول : ما ألتفت يميناً ولا شمالاً إلا وأنا أراها تقاتل دونى ».

واقرأ الخبر التالى لترى شجاعة مسلم واحد وما فعله بأحد قال الواقدى (١ / ٢٧٤) : وأقبل وهب بن قيس المزنى ومعه ابن أخيه الحارث بن عقبة بن قابوس بغنم لهما من جبل مزينة،

فوجـدوا المدينة خلوفاً (خاليــة) فسألا : أين الناس ؟ فـقالوا : بأُحد ، خرج رسول الله ﷺ يقاتل المشركين من قريش ، فقالا : لا نبتـغى أثراً بعد عين ، فـخرجا حـتى أتيا النبى ﷺ وأصـحابه فأغارا مع المسلمين فى النهب ، وجاءت الخيل من ورائهم : خالد ابن الوليد وعكرمة بن أبى جهل فاخـتلطوا ، فقاتلا أشد القتال ، فانـفرقت فرقـة من المشـركين . فـقال رسول الله ﷺ : من لـهذه الفرقة ؟ فقال وهب بن قابـوس : أنا يا رسول الله . فقام فرماهم بالنبل حـتى انصرفـوا ، ثم رجع فانفـرقت فرقـة أخرى ، فـقال رسول الله ﷺ : من لهذه الكتيبة ؟ قال المزنى : أنا يا رسول الله ، فـقـام فذبَّـها بالسـيف حـتى ولَّوا ، ثم رجـع المزنى ، ثم طلعت كتيبة أخرى فـقال : من لهؤلاء ؟ فقال المزنى : أنا يا رسول الله . فقـال : فقم وأبشر بالجنة ، فـقام المزنى مسـروراً يقول : والله لا أقيل ولا أسـتقيل ، فـقام فجـعل يدخل فيـهم فيضـرب بالسيف ورسول الله ﷺ ينظر إليـه والمسلمون حتى خرج من أقـصاهم ، ورسول الله ﷺ يقـول : اللهم ارحمه ! ثـم يرجع فيهم ، فـما زال كذلك ، وهم محدقـون به حتى اشتملت عليه أسيـافهم ورماحهم فقتلوه ، فوجد فيه يومئذ عشرون طعنة برمح ، كلها قد خلصت إلى مقـتل ، ومثل به أقبح المثل يومئـذ ، ثم قام ابن أخيه فـقاتل مثل قتاله حتى قتل ، فكان عمر بن الخطاب يقول : إن أحب ميتة أموت عليها كما مات عليها المزنى .

والآن تسالنى : ما الذى جعل المسلمين يحاربون بهذه البسالة يوم ذاك ؟ والجواب : الإيمان أولاً ، فهؤلاء ناس آمنوا حقًا ، فهانت عليهم الدنيا فى سبيل الدين ، وها أنت رأيت كيف أن رسول الله دعا للمزنى وقال : اللهم ارحمه ، فجعلته هذه الدعوة ينهض للمرة الرابعة ، ويقاتل حتى الموت سعيداً بالاستشهاد ، ثم إنهم كانوا يرون رسول الله وسطهم لا يتردد، ويقاتل بشجاعة تدعو إلى الإعجاب ، فلا يكون لهم بعد ذلك إلا أن يفعلوا فعل النبى ﷺ .

ترى لو أن قادة المسلمين بعد رسول الله التزموا بالسنة فعلاً ، وفعلوا فعل الرسول ﷺ أكان المسلمون يفقدون معركة واحدة ؟ هذا ، والصور التى أتيتك بها كانت من معركة يقولون لك : إن المسلمين قد خسروها ، وهى أحد ! فإذا كان هذا حال المسلمين يوم الهزيمة كما يقولون ؟ فتصور حالتهم فى حالات النصر والظفر ! .

لقد أبى رسول الله ﷺ إلا أن يشهد دفن وهب بن قابوس الشهيد ، وإليك وصف المشهد من الطبرى . قال ابن سعد : (أشهد لرأيت رسول الله ﷺ واقفاً عليه وهو مقتول ، وهو يقول : « رضى الله عنك فإنى عنك راض ! » ثم رأيت رسول الله ﷺ وقد نال رسول الله ﷺ من الجراح ما ناله ، وإنى لأعلم أن القيام

ليشق عليه ـ على قبره حتى وضع فى لحده وعليه بردة لها أعلام خضر ـ أى عليها زخارف باللون الأخضر ـ فمدَّ رسول الله ﷺ البردة على رأسه فخمره وأدرجه فيها طولاً ، وبلغت نصف ساقيه ، وأمرنا فجمعنا الحرمل ـ نبات يوضع مع الميت فى القبر ـ فجعلناه على ساقيه وهو فى لحده ، ثم انصرف ، فما حالٌ أموت عليها أحب إلىّ من أن ألقى الله تعالى على حال المزنى) .

***

كيف أنقذ رسول الله المسلمين
فى موقعة أحد

قلت فى حديث سابق : إن رسول الله ﷺ عندما ترك الرماة على جبل « عينين » وهجم الكفار على المسلمين بالخيل فتفرق الناس ، ثبت رسول الله مكانه ، وجعل يدعو الناس للحاق به ، حتى تلاحق به بعضهم ، وقرر الرسول أن يسير بالمسلمين إلى الشِّعب فى جبل أحد ؛ ليحتمى به من المشركين حتى يمسكهم عن دخول المدينة المنورة ، ويظلوا يقاتلونه وأصحابه حتى ينقضى اليوم دون أن يصل الكفار إلى النصر الذى أرادوا ، وتكون نتيجة أُحُد نصرا للمسلمين ، وتلك هى عبقرية محمد وقيادته التى لا تعدلها قيادة .

وإليك مشهد اتجاه رسول الله ﷺ إلى الشِّعب ، وكيف وصل إليه ، كما يرويه الواقدى عن رواته (الواقدى ، مغازى ١ / ٢٩٣) : « وحدثنى الضحاك بن عثمان عن ضمرة بن سعيد ، قال : لما انتهى إليهم رسول الله ﷺ كانوا فئته (أى انضموا إليه وساروا معه) فانتهى إلى الشِّعب وأصحابه فى الجبل ،

يذكرون قَـتْلَ من قُتِلَ منهم ، ويذكرون ما جـاءهم عن رسول الله ﷺ . قـال كـعب : وكنت أول من عـرفـه وعليـه المغفـر ، قـال : فـجعلت أصـيح : هذا رسـول الله ﷺ وأنا فى الشِّـعب . فجـعل رسـول الله ﷺ يومِئ إلـىّ بيـده على فـيـه أن أسـكت ، ثم دعـا بلأمتى، وكانت صفراء أو بعضـها ، فلبسها رسول الله ﷺ ونزع لأمته . قال : وطلع رسـول الله ﷺ على أصحابه فى الشِّعب بين السعـدين : سعـد بن عبـادة وسعد بـن معاذ يتكفـأ فى الدرع ، وكـان إذا مشى تكـفأ ﷺ تكفـؤا ، ويقـال : إنه كان يـتوكـأ على طلحة بن عبيد الله .

وكان رسـول الله ﷺ قد جـرح يومئـذ ، فما صلى الـظهر إلا جالساً ، فقال له طلحة : يا رسول الله ، إن بى قوة ! فحمله (أى توكأ عليه رسول الله) حتى انتهى إلى الصخرة على طريق أحد لم يَعْدُها رسول الله ﷺ إلى غيرها ، ثم حمله طلحة بن عبيد الله حتـى ارتفع عليهـا ، ثم مضى إلى أصـحابه ومـعه النفـر الذين ثبـتوا مـعـه ، فلمـا نظر المسلمـون من معـه جـعلوا يولون فى الشِّـعب ، ظنوا أنهم من المشركـين حـتى جعل أبو دُجَـانة يليح إليهم بعمامة حمراء على رأسه ، فعرفوه فرجعوا ، أو بعضهم » (الواقدى ، مغازى ١ / ٢٨٤) .

وحاول المشركون صعود جبل أُحد ؛ ليحاربوا المسلمين الذين تترسوا فى الشِّعب (وفيهم رسول الله ﷺ) فتنبه رسول الله إلى ذلك ، وأمر المسلمين أن يحولوا بين المشركين وصعود الجبل ، قال الواقدى (مغازى ١ / ٢٩٥) : « وكان عمر يقول : لما صاح الشيطان : (قتل محمد !) أقبلت أرقى فى الجبل كأنى أَرْوِيَّة (أنثى الوعل) فانتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يقول : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِى اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلاً وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِى الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾ (آل عمران ٣/ ١٤٤ ـ ١٤٥).

وأبو سفيان فى سفح الجبل . قال رسول الله ﷺ : « اللهم ليس لهم أن يَعْلونا » فانكشفوا .

وهبط الليل دون أن يستطيع المشركون دخول المدينة المنورة ، لقد أمسكهم رسول الله ﷺ عند جبل أُحد وشغلهم بذلك بقية النهار ، فلم يكسبوا من معركة أُحد إلا قتل بعض المسلمين، وبقيت قوة المسلمين كما هى ، ولم يدخل الكفار المدينة ، وأحس أبو سفيان بذلك ، ولكنه أراد أن يتظاهر بانهم كسبوا ذلك اليوم.

وإليك كيف يصف الواقدى ذلك ، قال الواقدى (١ / ٢٩٦ ـ ٢٩٧) : « قالوا : ولما تحاجزوا أراد أبو سفيان الانصراف ، فأقبل يسير على فرس له موراء أنثى ، فأشرف على أصحاب النبى ﷺ فى عرض الجبل ، فنادى بأعلى صوته : أُعلُ هُبَل ! ثم يصيح : أين ابن أبى كبشة ؟ (يريد رسول الله) أين ابن أبى قحافة ؟ أين ابن الخطاب ؟ يوم بيوم بدر ، ألا وإن الأيام دُوَلٌ، وإن الحرب سِجالٌ ، وحنظلة بحنظلة (يريد أن المسلمين قتلوا يوم بدر حنظلة بن أبى سفيان ، وأن المشركين قتلوا يوم أُحُد حنظلة بن أبى عامر الفاسق) فقال عمر لرسول الله ﷺ :أجيبه ؟ قال رسول الله ﷺ : بلى فأجبه ! فقال أبو سفيان : أُعْلُ هبل ! فقال عمر بن الخطاب : الله أعلى وأجل ! قال أبو سفيان : إنها قد أنعمت ، فتعال عنها (يريد أن آلهة المشركين قد أنعمت عليهم بالنصر فتعال عنها ، أى : لا تذكرها بعد ذلك بسوء) ثم قال : أين ابن أبى كبشة ؟ أين ابن أبى قحافة ؟ أين ابن الخطاب ؟

فقال عمر : هذا رسول الله ، وهذا أبو بكر ، وهذا عمر . فقال أبو سفيان : يوم بيوم بدر ، ألا إن الأيام دُوَلٌ ، وإن الحرب سِجَالٌ ! فقال عمر : لا سواء .. لا سواء قتلانا فى الجنة، وقتلاكم فى النار ! قال أبو سفيان : إنكم لتقولن ذلك ، لقد خبنا إذن وخسرنا ! قال أبو سفيان : لنا العزى ولا عزى لكم . فقال

عمر : الله مولانا ولا مولى لكم . قال أبو سفيان : إنها قد أنعمت يابن الخطاب فتعال عنها ، ثم قال : قم إلىَّ يا بن الخطاب أكلمك، فقام عمر . فقال أبو سفيان : أنشدك بدينك ، هل قتلنا محمداً ؟ قال عمر : اللهم لا ، وإنه ليسمع كلامك الآن . قال : أنت عندى أصدق من ابن قميئة ، وكان ابن قميئة قد أخبرهم أنه قتل رسول الله ﷺ ثم قال أبو سفيان ورفع صوته : إنكم واجدون فى قتلاكم عبثاً (يريد تمثيلاً بالأجساد) ومثلاً إلا أن ذلك لم يكن على رأى سراتنا ! ثم أدركته حمية الجاهلية فقال : أما إذا كان فلم نكرهه ! ثم نادى : ألا إن موعدكم بدر الصفراء على رأس الحول !

فوقف عمر وقفة ينتظر ما يقول رسول الله ﷺ فقال رسول الله : قل : نعم ، فقال عمر : نعم ، ثم انصرف أبو سفيان إلى أصحابه وأخذوا فى الرحيل ، فاشفق رسول الله ﷺ والمسلمون واشتدت شفقتهم من أن يغير المشركون على المدينة فتهلك الذرارى والنساء ، فقال رسول الله ﷺ لسعد بن أبى وقاص : ائتنا بخبر القوم : إن ركبوا الإبل وجنبوا الخيل فهو الظعن ، وإن ركبوا الخيل وجنبوا الإبل فهى الغارة على المدينة ، والذى نفسى بيده لئن ساروا إليها لأسيرن إليهم ثم لأناجزنهم .

وذهب سعد كما أمره رسول الله قال : فخرجت فى آثارهم حتى إذا كانوا بالعقيق ، وكنت حيث أراهم وأتأملهم فإذا هم قد ركبوا الإبل وجنبوا الخيل فقلت : إنه الظعن إلى بلادهم ، فوقفوا وقفة بالعقيق وتشاوروا فى دخول المدينة . فقال لهم صفوان ابن أمية : قد أصبتم القوم ، فانصرفوا ، فلا تدخلوا عليهم وأنتم كالون ولكم الظفر ، فإنكم لا تدرون ما يغشاكم ؛ قد وليتم يوم بدر ، والله ما تبعوكم والظفر لهم ! فقال رسول الله ﷺ : نهاهم صفوان » (الواقدى ١ / ٢٩٨) .

وكان رسول الله ﷺ مهموماً بأمر رجاله بعد المعركة يريد أن يطمئن على الكثير منهم ، روى الطبرى عن رواته قال : من رجل ينظر لى ما فعل سعد بن الربيع ؟ وسعد أخو بنى الحارث بن الخزرج ؟ أفى الأحياء هو أم فى الأموات ؟ فقال رجل من الأنصار :

أنا أنظر لك ـ يا رسول الله ـ ما فعل ، فنظر فإذا به جريح فى القتلى به رمق ، قال : فقلت له : إن رسول الله أمرنى أن أنظر له، أفى الأحياء أنت أم فى الأموات ؟ قال : فأنا فى الأموات ، أبلغ رسول الله عنى السلام ، وقل له : إن سعد بن الربيع يقول لك : جزاك الله خير ما جُزِىَ به نبى عن أمته ، وأبلغ عنى قومك السلام ، وقل لهم : إن سعد بن الربيع يقول لكم : إنه لا عذر لكم

عند الله ، إن خلص إلى نبيكم ﷺ وفيكم عين تطرف ، ثم لم أبرح حتى مات ، ثم جئت إلى رسول الله فأخبرته خبره ، وخرج رسول الله ﷺ ـ فيما بلغنى ـ يلتمس حمزة بن عبد المطلب ، فوجده ببطن الوادى قد بقر بطنه عن كبده ، ومُثِّلَ به ، فَجُدِعَ أنفه وأذناه (تاريخ الطبرى ٢ / ١٥٨) .

ثم إليك هذا الخبر ، أرويه لك ولا أظن إلا أنك قرأته قبل ذلك، قال (الطبرى ٢ / ٥٣٢) : « ثم انصرف رسول الله ﷺ راجعاً إلى المدينة ، فلقيته حمنة بنت جحش ـ كما ذكر لى ـ فنُعِى لها أخوها عبد الله بن جحش ، فاسترجعت واستغفرت له ، ثم نُعِىَ لها خالها حمزة بن عبد المطلب ، فاسترجعت واستغفرت له ، ثم نعى لها زوجها مصعب بن عمير ، فصاحت وولولت ، فقال رسول الله ﷺ : إن زوج المرأة منها لبمكان ! لما رأى من تثبتها عند أخيها وخالها ، وصياحها على زوجها » .

وانتهت المعركة بعد أن اطمأن رسول الله إلى أنه حال بين المشركين ودخول المدينة ، وكل الذى أصاب المؤمنين مقتل عدد من الصحابة وجرح عدد آخر ، ولكن قريشاً لم تصل إلى شىء ، وظل الموقف على حاله بعد أُحد كما كان قبلها ، ولكن رسول الله ﷺ خاف أن يفكر الكفار فى الأمر فى الطريق ويروا أنهم لم يبلغوا شيئاً ، فيعودوا لكى يدخلوا المدينة ، فقرر إبعادهم عنها

ومتابعتهم . قال الطبرى (٢ / ٥٣٤) : « قال : كان يوم أُحد يوم السبت للنصف من شوال ، فلما كان الغد من يوم أُحد ، وذلك يوم الأحد لست عشرة ليلة خلت من شوال أذَّنَ مؤذنُه : ألا يخرج معنا أَحَدٌ إلا من حضر يومنا بالأمس .. وإنما خرج رسول الله ﷺ مرهباً للعدو ، وليبلغهم أنه خرج فى طلبهم ، ليظنوا به قوة ، وأن الذى أصابهم لم يرهبهم عن عدوهم ، فخرج رسول الله ﷺ حتى انتهى إلى حمراء الأسد ، وهى من المدينة على ثمانية أميال ، فأقام بها ثلاثاً : الاثنين والثلاثاء والأربعاء ، ثم رجع إلى المدينة ، وإذن فقد كانت غزوة حمراء الأسد غزوة مكملة لغزوة أُحد ، وكان الغرض منها إرهاب القرشيين حتى يسرعوا إلى مكة وينصرفوا عن أى تفكير فى العودة إلى المدينة ومحاولة دخولها » .

« وقد مر به معبد الخزاعى ، وكانت خزاعة مسلمهم ومشركهم عبية رسول الله ﷺ بتهامة (أى : موضع سره) صفقتهم معه لا يخفون عليه شيئاً كان بها ـ ومعبد يومئذ مشرك ـ فقال : يا محمد ، والله لقد عز علينا ما أصابك فى أصحابك ، ولَوَدِدْنَا أن الله أعفاك فيهم ! ثم خرج من عند رسول الله ﷺ بحمراء الأسد حتى لقى أبا سفيان بن حرب ومن معه بالروحاء ، وقد أجمعوا الرجعة إلى رسول الله ﷺ وأصحابه،

وقالوا : أصبنا خير أصحابه وقادتهم وأشرافهم ثم رجعنا قبل أن نستأصلهم ، لنكُرَّنَّ على بقيتهم فلنفرغن منهم ، فلما رأى أبو سفيان معبداً قال : ما وراءك يا معبد ؟ قال : محمد قد خرج فى أصحابه فى جمع لم أر مثله قط يتحرقون عليكم تحرقاً ، وقد اجتمع معه من كان تخلف عنه فى يومكم ، وندموا على ما صنعوا ، فيهم من الحنق عليكم شىء لم أر مثله قط . قال : ويلك! ما تقول ؟ قال : والله ما أراك ترتحل حتى ترى نواصى الخيل . قال : فوالله لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصل بقيتهم . قال : فإنى أنهاك عن ذلك .. قال:فثنى ذلك أبا سفيان ومن معه ، ومر به ركب من عبد القيس فقال : أين تريدون ؟ قالوا : المدينة . قال : ولمه ؟ قالوا : نريد الميرة . قال : فهل أنتم مبلغون عنى محمداً رسالة أرسلكم بها إليه ؟ وأحمل لكم إبلكم هذه غداً زبيباً بعكاظ إذا وافيتموها ؟ قالوا : نعم . قال : وإذا جئتموه فاخبروه أنَّا قد أجمعنا المسير إليه وإلى أصحابه ؛ لنستأصل بقيتهم ، فمر الركب برسول الله ﷺ بحمراء الأسد فاخبروه بالذى قال أبو سفيان ، فقال رسول الله ﷺ : حسبنا الله ونعم الوكيل » (الطبرى ٢ / ٥٣٥ ـ ٥٣٦) .

وفى مقام رسول الله وأصحابه بحمراء الأسد يقول الواقدى (١ / ٣٣٨) : « وكان رسول الله ﷺ يامرهم فى النهار بجمع

الحطب ، فإذا أمسوا أمرنا أن نوقد النيران ، فيوقد كل رجل ناراً قال : فقد كنا تلك الليالى نوقد خمسمائة نار حتى نرى من المكان البعيد ، وذهب ذكر معسكرنا ونيراننا فى كل وجه ، فكان مما كبت به الله تعالى عدونا » .

فانظر كيف أتقن رسول الله عمله، فخرج فى أثر القوم وعسكر فى حمراء الأسد وهم فى الروحاء غير بعيد ، وأوقد النيران فى عسكره بالليل حتى يظن الناس أنهم أضعاف عددهم، ثم استعان بمعبد الخزاعى على إرهاب الأعداء ، فأسرعوا بالعودة إلى مكة خوفاً من المسلمين ! فهل رأيت أعظم من هذه خطة ؟! لقد كانت غزوة حمراء الأسد مكملة لغزوة أحد، وهى التى صرفت أنظار المشركين عن العودة إلى المدينة لدخولها ، وقد روى الطبرى خبراً يدل على حقيقة موقف العباس بن عبد المطلب من الإسلام ومعرفة رسول الله ﷺ بالعباس أصدق معرفة ، وقد حاول العباسيون عندما صارت إليهم الخلافة أن يخفوا هذه الأخبار ، وإليك نص كلام الطبرى وهو فى غاية الوضوح والبلاغة ، قال (٢ / ٤٦٥ / ٤٦٦) : « حدثنى ابن أبى حُميد عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال للعباس بن عبد المطلب حين انتهى به إلى المدينة : يا عباس : افْدِ نفسك وابْنَىْ أخيك عقيل بن أبى طالب ونوفل بن الحارث ،

وحليفك عتبة بن عمرو بن جحدم أخا بنى الحارث بن فهد ؛ فإنك ذو مال . فقال : يا رسول الله ، إنى كنت مسلماً ، ولكن القوم استكرهونى ، فقال : الله أعلم بإسلامك ، إن يكن ما تقول حقّا فالله يجزيك به ، فأما ظاهر أمرك فقد كان علينا ، فافد نفسك ـ وكان رسول الله ﷺ قد أخذ منه عشرين أوقية من ذهب ـ فقال العباس : يا رسول الله ، احسبها لى فى فدائى ، قال : لا ، هذا شىء أعطاناه الله منك ، قال : فإنه ليس لى مال . قال : فأين المال الذى وضعته بمكة حيث خرجت عند أم الفضل بنت الحارث ، ليس معكما أحد ، ثم قلت لها : إن أصبت فى سفرى هذا فللفضل كذا وكذا ، ولعبد الله كذا وكذا ، ولقُثَمَ كذا وكذا ، ولعبيد الله كذا وكذا ؟ قال: والذى بعثك بالحق ما علم هذا أحد غيرى وغيرها ! وإنى لأعلم أنك رسول الله ، ففدى العباس نفسه وابنى أخيه وحليفه » .

ويكفى هذا عن غزوة أُحد ؛ فقد عرفنا حقيقة ما جرى فيها ، وموقف رسول الله ﷺ وما فعله بما فيه الكفاية . ولننتقل إلى بعض ما كان بعدها من حوادث السيرة ، فنقف عند غزوة الخندق أو الأحزاب ، وهى من أعاظم الغزوات ، وفيها فشلت قريش وغطفان وهوازن فى إدراك شىء من المدينة والإسلام ، فكان فشلهم إيذاناً بالنصر الحاسم للإسلام .

* * *

بداية غزوة الخندق:

وكانت غزوة الخندق فى شهرى شوال وذى القعدة سنة خمس هجرية (أبريل ٦٢٧ ميلادية) . ونبدأ هنا برواية خبر عن ابن إسحاق أتانا به الطبرى (٢ / ٥٦٥ ـ ٥٦٦) فى أمر الذين حركوا قريشاً وأحلافها للمسير إلى المدينة لمهاجمة المسلمين فيها قال : « إن نفرا من اليهود منهم سلام بن أبى الحقيق النفرى وحيى بن أخطب النفرى ، وكنانة بن أبى الربيع ابن أبى الحقيق النفرى ، وهوذة بن قيس الوائلى ، وأبو عمار الوائلى فى نفر من بنى النضير ونفر من بنى وائل هم الذين حزبوا الأحزاب على رسول الله ﷺ ، خرجوا حتى قدموا على قريش بمكة ، فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ ، وقالوا : إننا سنكون معكم عليه حتى نستأصله ، فقالت لهم قريش : يامعشر يهود ، إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد ، أفديننا خير أم دينه ؟ قالوا : بل دينكم خير من دينه ، وأنتم أولى بالحق منه ، قال : فهم الذين أنزل الله عز وجل فيهم :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾

أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ ﴾ (النساء : ٥١ ـ ٥٥) .

فلما قالوا ذلك لقريش سرهم ما قالوا ، ونشطوا لما دعوهم إليه من حرب رسول الله ﷺ .

ثم خرج أولئك النفر من يهود حتى جاءوا غطفان من قيس عيلان ، فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ ، وأخبروهم أنهم سيكونون معهم عليه ، وأن قريشاً تابعوهم على ذلك وأجمعوا فيه ، فاجابوهم .

فخرجت قريش وقائدها أبو سفيان بن حرب ، وخرجت غطفان وقائدها عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر فى فزارة ، والحارث بن عوف بن أبى حارثة فى بنى مرة ، ومسعود بن رخيلة بن نويرة بن طريف بن سحمة بن عبد الله بن هلال بن خلاوة بن أشجع بن ريث بن غطفان ، فيمن تابعه من قومه من أشجع » (تاريخ الطبرى ٢ / ٥٦٥ ـ ٥٦٦) .

وإذن فيكون يهود بنى النضير وأحلافهم هم الذين جمعوا قريشاً وغيرهم من أعداء الإسلام من العرب للمسير إلى المدينة لغزوة الأحزاب . وهذا أيضاً هو رأى الواقدى وغيره من قدماء المؤرخين ، ولكن اليهود لم يكن لهم نصيب فى الغزوة نفسها .

ونظراً لكثرة عدد العرب الذين تجمعوا لغزو المدينة رأى رسول الله ﷺ أن خير وسيلة لمواجهة هذا العدد الكبير من الأعداء هو إحاطة الأجزاء المكشوفة بخندق ، ويقال : إن هذا كان رأى سلمان الفارسى « وكان هذا ـ كما يقول الطبرى (٢ / ٥٦٦) ـ أول مشهد شهده سلمان مع رسول الله ﷺ وهو يومئذ حر » .

وعرف المسلمون ما فعله اليهود « فخرجوا حتى أتوهم فوجدوهم على أخبث ما بلغهم عنهم ، ونالوا من رسول الله ﷺ وقالوا : لا عقد بيننا وبين محمد ولا عهد ، فشاتمهم سعد بن عبادة وشاتموه ، وكان رجلاً فيه حدٌّ (غضب) فقال له سعد بن معاذ : دع عنك مشاتمتهم ، فما بيننا وبينهم أربى من المشاتمة ، ثم أقبل سعد وسعد ومن معهما إلى رسول الله ﷺ فسلموا عليه ، ثم قالوا : عضل والقارة (أى) كغدر عضل والقارة بأصحاب رسول الله ﷺ أصحاب الرجيع : خبيب بن

عدى وأصحابه ، فقال رسول الله ﷺ : الله أكبر ! أبشروا يامعشر المسلمين ! وعظم عند ذلك البلاء واشتد الخوف . وأتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم حتى ظن المسلمون كل ظن ، ونجم النفاق من بعض المنافقين حتى قال معتب بن قشير أخو بني عمرو بن عوف : كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا لا يقدر أن يذهب إلى الغائط !! وحتى قال أوس بن قيظى أحد بنى حارثة بن الحارث : يا رسول الله ، إن بيوتنا لعورة من العدو ـ وذلك عن ملأ من رجال قومه ـ فأذن لنا فلنرجع إلى دارنا ، فإنها خارجة عن المدينة » .

وهذه الأخبار واردة بتفصيل أكثر عند الواقدى (٢ / ٤٤٠ وما بعدها) ولكن هنا ملاحظة جديرة بأن نقف عندها، قال : «لما أجلى رسول الله ﷺ بنى النضير ساروا إلى خيبر ، وكان بها من اليهود قوم أهل عدد وجلد ، وليست لهم من البيوت والأحساب ما لبنى النضير ، كان بنو النضير سرهم ، وقريظة من ولد الكاهن ابن هارون ، فلما قدموا خرج حيى بن أخطب » .

وهذا الخبر يلقى فكرة هامة جدًا عن يهود جزيرة العرب ، فقد كان فيهم يهود أصلاء هاجروا إلى الجزيرة ، وهم بنو النضير ، وكان فيهم يهود مهاجرون من فلسطين أيضاً ،

ولكنهم كـــانوا أقل فى الحـسب والأصـالة من بنـى النضـيـر ، وهؤلاء مثل قريظة « من ولد الكـاهن من بنى هارون » أما يهود خيبر فيفهم من هذا النص أنهم عرب تهودوا ، وهذه فكرة عامة . وقد درس أصـول يهود الجـزيرة إسرائيل ولفنسـون الذى كان مدرساً فى جامـعة القاهرة ، وأعطانا عنهم تفصيـلات ذات قيمة كبيرة .

***

للمرة الثانية ..
أنقذ رسول الله المسلمين فى حنين

ننتقل الآن إلى غزوة الغابة ، وهى السادسة والثلاثون من غزوات الرسول وسراياه وبعوثه ، وكانت فى المحرم سنة ست هجرية (يونيو ٦٢٧) وكان عُيَيْنة بن حصن رئيس فزارة من غطفان قد أغار على لقاح النبى ﷺ ، أى : جماله وخيله وماشيته ، وكانت ترعى فى موضع يسمى الغابة شمالى المدينة المنورة بقليل ، فسرق منها أربعين لقحة وهرب ، وسمع رسول الله بالخبر ، فأمر بالإسراع وراءه ، وقد سبق المسلمين إلى اللحاق به سلمة بن الأكوع ، وكان مشهوراً بأنه أسرع الناس جميعاً حتى كان يجرى على رجليه فيسبق الخيل ، فادرك الغزاة وأصاب منهم ، ثم لحق به رسول الله ﷺ . وتمتاز هذه الغزوة بأن رسول الله كان فيها فى ناس قليلين ؛ فاقترب منهم واقتربوا منه ، وجاءتنا الأخبار حافلة بالتفاصيل الممتعة عن رسول الله ﷺ .

وإليك الخبر التالى من أخبار غزوة الغابة الذى يرويه الواقدى (٢ / ٥٤١) والذى تجد فيه تصويراً بديعاً لذكاء

الرسول وبعد نظره وحُسْنِ أخلاقه ﷺ ، قال يروى عن سلمة ابن الأكوع الذى تبع اللصوص مصمماً على اللحاق بهم واستعادة ما سرقوا من لقاح النبى ﷺ : « قال سلمة : فمازلت أكافحهم وأقول : قفوا قليلاً يلحقكم أربابكم من المهاجرين والأنصار ، فيزدادون علىّ حنقا ، فيكرون علىّ فأعجزهم هرباً حتى انتهيت بهم إلى ذى قرد ، ولحقنا رسول الله ﷺ والخيول عشاء ، فقلت : يا رسول الله ، إن القوم عطاش، وليس لهم ماء دون إحساءك كذا وكذا ، فلو بعثتنى فى مائة رجل استنقذت ما بأيديهم من السَّرْح وأخذت بأعناق القوم ، فقال رسول الله ﷺ: ملكت فأسجح (أى قدرت فاعف) ، ثم قال رسول الله ﷺ : إنهم ليقرون اليوم فى غطفان » ..

فهنا ترى كيف أن رسول الله ينصح سلمة بن الأكوع بالتسامح مع الأعداء إذا قدر عليهم ، والواقع أن الرسول كان يرى أن سلمة لا يستطيع اللحاق باللصوص ، فلابد أنهم قد عادوا الآن إلى ذويهم فى قبيلة غطفان ، ولكنه ﷺ تلطف فى الكلام مع سلمة .

وفى الفقرة التالية نرى رسول الله ﷺ وسط أصحابه فى هذه الغزوة ، ونرى كيف كان يتصرف معهم ويقرب من يستحق التقريب منهم ، مثل سعد بن عبادة ، وقال الواقدى : « حدثنى

مالك بن أبى الرجال ، عن عبدالله بن أبى بكر بن حزم ، عن عمارة بن معمر ، قال : أقام رسول الله ﷺ بذى قرد يوماً وليلة يتحسَّب الخبر (يطلب الأخبار) وقسم فى كل مائة من أصحابه جزوراً ينحرونها ، وكانوا خمسمائة ، ويقال : كانوا سبعمائة، قالوا : واستخلف رسول الله على المدينة ابن أم مكتوم ، وأقام سعد بن عبادة فى ثلاثمائة من قومه يحرس المدينة خمس ليال حتى رجع النبى ﷺ ، وبعث سعد بن عبادة إلى النبى ﷺ بأحمال تمر وبعشرة جزائر بذى قرد ، وكان فى الناس قيس بن سعد على فرس له يقال له الورد ، وكان هو الذى قرب الجزر والتمر إلى النبى ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : يا قيس ، بعثك أبوك فارساً وقوّى المجاهدين وحرس المدينة من العدو ؟! اللهم ارحم سعداً وآل سعد ، ثم قال رسول الله ﷺ : نعم المرء سعد بن عبادة . فتكلمت الخزرج .. فقالت : يا رسول الله ، هو بيننا سيدنا وابن سيدنا ، كانوا يطعمون فى المحْل ، ويحملون الكَلّ، ويقرُون الضيف ، ويعطون فى النائبة ، ويحملون عن العشيرة، فقال النبى ﷺ : خيار الناس فى الإسلام خيارهم فى الجاهلية إذا فقهوا فى الدين . ولما انتهى رسول الله ﷺ إلى بئرهم قالوا : يا رسول الله ، ألا تسُم بئرهم ؟ فقال رسول الله ﷺ : لا ، ولكن يشتريها بعضكم فيتصدق بها ، فاشتراها طلحة بن عبيد الله فتصدق بها » (مغازى الواقدى : ٢ / ٥٤٧) .

وهذا سعد بن عبادة هو الذى اجتمع مع قومه وبقية الأنصار فى سقيفة بنى ساعدة بعد موت الرسول ﷺ للتشاور فيما يفعلونه بعد الرسول ، وهو الذى قال فيه واحد من كبار المهاجرين بعد بيعة أبى بكر : ونزونا على سعد بن عبادة ، فقال قائلهم : أقتلتم سعد بن عبادة ؟ قال : فقلت : قتل الله سعد ابن عبادة (ابن إسحاق برواية ابن هشام ، السيرة ٤ / ٣١٠) فتأمل ما حدث للناس بعد موت الرسول .

ثم اقرأ الخبر الذى أسوقه إليك نقلاً عن مغازى الواقدى (٢ / ٨٥٣) وما بعدها : « وكان رسول الله قد ترك صفوان بن أمية كافراً على ما هو عليه بعد دخول الرسول مكة ، ولكن صفوان لم يكن مطمئنّا على نفسه حتى أبلغه عُمير بن وهب (وكان قد أسلم) أن رسول الله يريد أن يراه ، فذهب إليه فوجده يصلى بالناس العصر ، فلما سلم صاح صفوان : يا محمد ، إن عمير بن وهب جاءنى ببردك ، وزعم أنك دعوتنى إلى القدوم عليك ، فإن رضيت أمراً (يريد فإن رضيت أن أدخل الإسلام دخلت) وإلا سيرتنى شهرين ، قال (رسول الله) : انزل أباوهب قال : لا والله حتى تبين لى ، قال : بل تسير أربعة أشهر (بدلاً من شهرين كما طلب ، سورة براءة أعطت الكفار أربعة أشهر) فنزل صفوان وخرج رسول الله ﷺ قِبَل هوازن (أى يقصد لقاء

هوازن عندما سارت للهجوم على مكة) وخرج معه صفوان وهو كافر ، وأرسل إليه (رسول الله) يستعيره سلاحه فأعاره سلاحه : مائة درع بأداتها ، فقال : طوعاً أو كرهاً ؟ فقال رسول الله ﷺ : عارية مؤداة ، فأعاره ، فأمره رسول الله ﷺ فحملها إلى حنين ، فشهد حنيناً والطائف ، فبينا رسول الله ﷺ يسير فى الغنائم ينظر إليها ومعه صفوان بن أمية ، وجعل صفوان ينظر إلى شِعْبٍ ملىء نعماً وشاء ورعاء فأدام إليه النظر ، ورسول الله ﷺ يرمقه ، فقال : أبا وهب ، يعجبك هذا الشعب ؟ قال : نعم ، قال : فهو لك بما فيه . فقال صفوان عندئذ: ما طابت نفس أحد بمثل هذا إلا نفس نبى ، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله . وأسلم مكانه » .

وهكذا عامل رسول الله ذلك الكافر بحلم وبعد نظر وحكمة وكرم ، واستطاع بهذا أن يجتذبه للإسلام .

ومن أكبر الأدلة على نبوة محمد ﷺ وارتفاع خلقه على مستوى عامة البشر موقفه من عكرمة بن أبى جهل الذى طالما كان عدوًا لدوداً للإسلام ، وهذا الرجل هدى الله قلبه للإسلام بعد فتح مكة ، فأسلم ، وعرف رسول الله أنه قادم إلى المدينة ليعلن إسلامه . قال الواقدى فى مغازيه (٢ / ٨٢٥) : « فلما دنا من مكة قال رسول الله ﷺ لأصحابه : (يأتيكم عكرمة

ابن أبى جهل مؤمناً مهاجراً ، فلا تسبوا أباه ؛ فإن سب الميت يؤذى الحى، ولا يبلغ الميت) وقد أكرم رسول الله عكرمة ، فزاد إعجابه برسول الله ، وأصبح من ذلك الحين من أوثق المسلمين إيماناً بالإسلام وأكثرهم استعداداً للبذل فى سبيله ، وظل على ذلك حتى استشهد فى معركة أجنادين مجاهداً فى سبيل الإسلام » .

وكان موقف رسول الله ﷺ من هبار بن الأسود من أجلِّ مواقفه وأدلها على صدق نبوته ، وهبار هذا هو الذى تبع زينب بنت الرسول ﷺ وضرب ظهرها بالرمح ـ وكانت حبلى ـ حتى سقطت ، فأهدر النبى ﷺ دمه ، وكان شديد البغض له لا يزال يوصى أصحابه بقتله إذا ظفروا به ، وكان الصحابة حريصين على ذلك ، ولكنهم لم يظفروا به .

وإليك كيف يصف الواقدى إسلام هبار وعفو الرسول عنه ، والصورة هنا تروى بكلام الزبير بن العوام ، قال الزبير : «مارأيت رسول الله ذكر هباراً قط إلا تغيظ عليه ، ولا رأيت رسول الله ﷺ بعث سرية قط إلا قال : إن ظفرتم بهبار فاقطعوا يديه ورجليه ثم اضربوا عنقه .. ثم طلع على رسول الله ﷺ وأنا عنده جالس ، فجعل يعتذر إلى رسول الله ﷺ ويقول : سُبَّ يامحمد من سبك وأوذى من آذاك ، فقد كنت موضعاً فى سبك

وأذاك ، وكنت مخذولاً ، وقد نصرنى الله وهدانى إلى الإسلام . قال الزبير : فجعلت أنظر إلى رسول الله ﷺ وإنه ليطأطئ رأسه استحياء مما يعتذر عنه هبار ، وجعل رسول الله ﷺ يقول : قد عفوت عنك ؛ الإسلام يجب ما قبله ، وكان لَسِناً ، وكان يسب حتى يبلغ منه فلا ينبعث من أحد ، فبلغ رسول الله ﷺ حلمه وما يحمل عليه من الأذى فقال ؛ هبارسُبَّ من سبّك » (الواقدى مغازى ٢ /٨٥٨ ـ ٨٥٩) .

فانظر إلى هذا الرجل الذى آذى رسول الله هذا الأذى البالغ ، ثم تبين خطأه وأسلم وجعل يعتذر فيسرف فى الاعتذار ، ورسول الله خجلان له ، ثم يؤكد له الرسول أنه عفا عنه ؛ لأن الإسلام يجب ما قبله ، ولا يقف الرسول عند ذلك ، بل إنه يشفق على هبار لكثرة ما كان الناس يوجهون إليه من سباب وهو ساكت ، فقال له : هبار سُبّ من سبك .

وقد قتل المسلمون بعد فتح مكة نفراً قليلاً جدّا من القرشيين ممن أسرفوا فى هجاء الرسول والإسلام ، ورأى رسول الله أن يوقف هذا القتل حرصاً على قريش ، فقال : لا تقتل قريش صبراً بعد اليوم . يعنى على الكفر ، وبلغ من حرصه على سلامة قريش بعد ذلك أنه قال : لا تغزى قريش بعد اليوم إلى يوم القيامة . يعنى على الكفر . وبلغ من كرم رسول الله بعد الفتح

أنه عفا حتى عن وحشى قاتل حمزة بعد أن أعلن إسلامه ، وكل ما فعله معه أن قال له : غَيِّب عنى وجهك . قال : وكنت إذا رأيته تواريت عنه . وبلغ من رغبة وحشى فى تحسين اسمه أن زعم أنه ربما كان قاتل مسيلمة الكذاب (مغازى الواقدى ٢ / ٨٦٢ - ٨٦٣) ،

ولو أن رسول الله أراد أن يغتنم رجاله كل ما فى مكة لترك الجند يفعلون ما يريدون ، ولكنه كان حريصاً على سلامة قريش ؛ ولهذا أمر رجاله ألا يمس أحد منهم شيئاً من أشياء مكة، والنتيجة أن رجاله احتاجوا إلى ما ينفقون منه بعد الفتح ، فأقبل الرسول يستقرض المال من أغنياء القرشيين الكفار؛ ليعطى رجاله ما يعيشون به ، وهذا من أعظم الأدلة على ارتفاع المستوى الخلقى عند الرسول أولاً ، وحرصه على سلامة قريش ثانياً ، ثم حرصاً على سلامة الإسلام آخر الأمر ، وإليك نص الواقدى فى ذلك (مغازى ٢ / ٨٦٣ - ٨٦٤) : « وحدثنى عبد الله ابن زيد الهذلى ، عن أبى حصين الهذلى قال : استقرض رسول الله ﷺ من ثلاثة نفر من قريش : من صفوان بن أمية خمسين ألف درهم فأقرضه ، واستقرض من عبد الله بن أبى ربيعة أربعين ألف دهم ، واستقرض من حويطب بن عبد العزى أربعين ألف درهم ، فكانت ثلاثين ومائة ألف ، فقسمها رسول

الله ﷺ بين أصحابه من أهل الضعف ، قال : فاخبرنى رجل من بنى كنانة ـ كانوا مع رسول الله ﷺ فى الفتح ـ أنه قسم فيهم دراهم ، فيصيب الرجل خمسين درهماً ، أو أقل أو أكثر ، ومن ذلك المال بعث إلى بنى جذيمة » .

ثم انظر الخبر التالى الذى ينفع أهل الفقه : « نهى رسول الله ﷺ يوم الفتح عن ثمن الخمر وثمن الخنزير وثمن الميتة وثمن الأصنام ، وحلوان الكاهن » (مغازى الواقدى ٢ / ٨٦٤) وهناك تجد سند هذا الخبر .

وفى خبر يرويه الواقدى (مغازى ٢ / ٨٦٧) يقول سعد بن عبادة قولاً ينال بعض الشىء من نساء قريش ، وبلغ ذلك القول رسول الله ﷺ ، فغضب النبى ﷺ حتى كان وجهه ليتوقد ، ثم قال ـ مخاطباً سعد بن عبادة : « رأيتهن وقد أُصبْنَ بآبائهن وأبنائهن وإخوانهن وأزواجهن ؟! خير نساء ركبن الإبل نساء قريش ! أحناه على ولد ، وأبذله لزوج بما ملكت يد» ، وهذه من صور كثيرة جدًا تبين لنا أن رسول الله ﷺ ظل محتفظاً بقريشيته وثقته فى أن قُرَيْشًا المؤمنة تستطيع عندما تنتصرعلى قريش الكافرة أن تؤدى للإسلام وأهله خيراً كثيراً ، وهذا هو الذى كان بالفعل.

وإليك بيـــاناً يورده الطبـــرى (٣/ ٦٤ ـ ٦٥) عـن الذين أسلموا من العرب واشـتركوا فى فتح مكة إلى جـانب المهاجرين والأنصار ، وكانت عدة جـيش المسلمين ١٠٠٠٠ مقاتل : من بنى غفـار ٤٠٠ ومن أسلم ٤٠٠ ومن مـزينة ١٠٠٣ ، ومن بنى سُليم ٧٠٠ ومن بنى جهـينة ١٤٠٠ » وسائرهم (يريد بقيـتهم ٦٠٩٧ رجلاً) من قريش والأنصـار وحلفائهم وطوائف العرب من بنى تميم وقيس أسد ، وقد أورد بنفس الخبـر التفاصيل ابن إسحاق برواية اين هشـام ٢ / ٢٨٩ قال ابن إسـحـاق : وكان فـتح مكة لعشر بقين من رمضـان سنة ٨ هـ ، وقد بدأت معركة حنين فى وادى حنين ، ثم انتـقل ميـدانها إلى أوطاس شـرقى ذى المجاز ، وقد وصف لنا ابن إسحـاق ميدان المعركة وصفاً دقـيقاً قال (٣/ ٧٤) : « لما اسـتـقـبلنا وادى حنيـن انحـدرنا إلى واد من أودية تهامـة أجوف حطوط (مـتسع) إنما ننحـدر فيـه انحداراً » ثم قال: وفى عـماية الصـبح . وكان القوم قـد سبـقوا إلى الوادى ، فمكنوا لنا فى شعـابه وأحنائه ومضايقه ، قد أجمعـوا وتهيئوا وأعـدوا . فوالله مـا راعنا ونحن منحطون إلا الكتـائب قد شـدت علينا شـدة رجل واحـد ، وانهـزم الناس أجمـعـون فـانتشـروا (انفضوا وانـهزموا) لا يلوى أحد على أحـد . وانحاز رسول الله ﷺ ذات اليـمـيـن ثـم قـــال : أيـن أيهـا الناس ! هـلمَّ إلىّ ، أنا

رسول الله ، أنا محمد بن عبد الله ! قال : فلا شيء ! احتملت الإبل بعضها بعضاً ، فانطلق الناس . إلا أنه قد بقى مع رسول الله ﷺ نفر من المهاجرين والأنصار وأهل بيته : على بن أبى طالب والعباس بن عبد المطلب وابنه الفضل ، وأبو سفيان بن الحارث وربيعة بن الحارث ، وأيمن بن عبيد (وهو ابن أم أيمن) وأسامة بن زيد بن حارثة ، وقال : ورجل من هوازن على جمل له أحمر ، وبيده راية سوداء فى رأس رمح طويل أمام الناس وهوازن خلفه ، إذا أدرك طعن برمحه ، وإذا فاته الناس رفع رمحه لمن وراءه فاتبعوه . ولما انهزم الناس ورأى من كان مع رسول الله ﷺ من جفاة أهل مكة الهزيمة تكلم رجال منهم بما فى أنفسهم من الضغن ، فقال أبو سفيان بن حرب : لا تنتهى هزيمتهم دون البحر ! والأزلام معه فى كنانته ، وصرخ كلدة بن الحنبل وهو مع أخيه صفوان بن أمية بن خلف ، وكان أخاه لأمه ، وصفوان يومئذ مشرك فى المدة التى جعل له رسول الله ﷺ فقال : ألا بطل السحر اليوم ! فقال له صفوان : اسكت ، فض الله فاك ! والله لأن يربنى رجل من قريش أحب إلى من أن يربنى رجل من هوازن ! وقال شيبة بن عثمان بن طلحة ، أخو بنى عبد الدار ، قلت : اليوم أدرك ثأرى ـ وكان أبوه قتل يوم أحد ـ اليوم أقتل محمداً ! قال : فأردت رسول الله لأقتله ، قال : فأقبل

شيء حتى تغشى فؤادى فلم أطق ذلك ، وعلمت أنه منع منى . »
(الواقدى ٣/ ٧٤ ـ ٧٥ ، سيرة ابن هشام ٢ / ٢٨٩) .

وهكذا نرى أن رسول الله بقى فى نفر قليل من المؤمنين ، أما الباقى فقد أدهشتهم المفاجأة فولوا لا يلوون على شيء . وهنا نرى شجاعة رسول الله واجتماع رأيه وثبات قلبه ، قال ابن إسحاق فى نفس الموقع من الطبرى وسيرة ابن هشام : «ورسول الله ﷺ يقول حين رأى من الناس ما رأى : أين الناس؟ فلما رأى الناس لا يلوون على شيء قال : يا عباس ، اصرخ : يامعشر الأنصار ! يا أصحاب السمرة ! فناديت : يا معشر الأنصار ! يا أصحاب السمرة ! قال : فأجابوا أن لبيك لبيك ! قال: فيذهب الرجل منهم يريد ليثنى بعيره ، فلا يقدر على ذلك ، فيأخذ درعه فيقذفها فى عنقه ، ويأخذ سيفه وترسه ، ثم يقتحم عن بعيره فيخلى سبيله فى الناس ، ثم يؤم الصوت حتى ينتهى إلى رسول الله ﷺ حتى إذا اجتمع إليه منهم مائة رجل استقبلوا الناس ، فكانت الدعوى أول ما كانت : يا للأنصار ! ثم جعلت أخيراً : يا للخزرج ، وكانوا صبراً عند الحرب ، فأشرف رسول الله ﷺ فى ركابه ، فنظر مجتلد القوم وهم يجتلدون فقال: الآن حمى الوطيس » .

وهكذا نرى كيف أن رسول الله ﷺ أنقذ المسلمين فى معركة حُنَيْنٍ بثباته وحضور ذهنه ، وقد ورد ذكر ذلك فى القرآن الكريم فى سورة التوبة ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ (٢٥) ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (٢٦) ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٧) ﴾ (التوبة : ٢٥ ـ ٢٧) .

ورواية الواقدى هنا أكثر تفصيلاً وفائدة ، وفيها ترى كيف أن قائد هوازن يومئذ وهو مالك بن عوف النصرى وكان معتزًا برأيه واثقاً من أنه سينتصر على المسلمين حتى إنه رفض أن يستمع إلى كلام دريد بن الصمة بن بكر بن علقمة من بنى جشم، وكان قد نصحه بالعدول عن لقاء المسلمين على تلك الصورة التى أرادها مالك بن عوف ، فقد أخرج النساء والأطفال وجعلهم فى مؤخرة العسكر ليشجعوا الكفار ، وقال عامر بن عوف : يا معشر هوازن ، والله لتطيعُنني أو لأتكئن على السيف حتى يخرج من ظهرى ! وكره مالك أن يكون لِدُرَيْدٍ أى ذكر

ورأى، واضطرت هوازن إلى أن يدخلوا المعركة كما رأى مالك بن عوف .

وكانت حنين بعد فتح مكة بقليل ؛ لأن هوازن وثقيف .. خافوا من المسلمين خوفاً شديداً بعد فتح مكة ، وأحسوا أن دورهم لابد سيجيء قريباً ، فكان هذا هو الذى جعل مالك بن عوف يسرع بالمسير مع هوازن لحرب المسلمين ، قال ابن إسحاق برواية الواقدى : افتتح رسول الله ﷺ مكة لثلاث عشرة مضت من رمضان سنة ٨هـ وأنزل الله تعالى : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ (سورة النصر ١١٠/ ١) قالوا : وكان فتح مكة يوم الجمعة لعشر بقين من رمضان ، ثم غدا يوم السبت لست ليال خلون من شوال ، واستعمل على مكة عتاب بن أسيد يصلى بهم ، ومعاذ بن جبل يعلمهم السنن والفقه (الطبرى ٢ / ٨٨٩ ابن هشام السيرة ٢ / ١٩٠) وكان نفر من كفار قريش ، ممن كانوا فى مدة الأربعة الأشهر التى أعطاها الله للكفار ليسلموا من أمثال صفوان بن أمية وحكيم بن حزام (ابن أخى خديجة بنت خويلد أم المؤمنين رحمها الله) وحويطب بن عبد العزى ، وسهيل بن عمرو ، وأبى سفيان بن حرب ، والحارث بن هشام ، وعبد الله بن ربيعة ـ ينظرون لمن تكون الدائرة فيصيبون من

الغنائم ولا يكرهون أن تكون الصدمة (أى المصيبة والهزيمة) لمحمد ﷺ وأصحابه .

ويروى لنا الواقدى خبراً عن معركة حنين يضم حديثاً بالغ الحكمة والبلاغة لرسول الله ﷺ ذلك أن المسلمين لما هزموا المشركين أسرعوا فى قتل ذرية الكفار ، فصاح رسول الله : مابال أقوام ذهب بهم القتل حتى بلغ الذرية ؟ ألا لا تقتل الذرية ! ـ ثلاثاً ـ قال أسيد بن الحضير : يا رسول الله ، أليس إنما هم أولاد المشركين ؟ فقال رسول الله ﷺ : أليس خياركم أولاد المشركين ؟ كل نسمة تولد على الفطرة حتى يعرب عنها لسانها ، فأبواها يهودانها أو ينصرانها (مغازى ٣/ ٩٠٥) .

ومن أغرب ما وقع فى معركة حنين خروج المسلمات للحرب فى سبيل الدين ، وما قمن به من أعمال لا يمكن أن توصف إلا بأنها أعمال بطولة ، وقد تحدثت المراجع كلها عن ذلك ، ولكن الواقدى أكثر تفصيلاً هنا عن غيره من مراجعنا ، شأنه فى كل ما يتصل بالمغازى .

وقد تحدث الواقدى عن ذلك فى أكثر من موضع ، ولكنى أسوق لك هنا خبراً موجزاً عن ذلك أختم به هذا الفصل ، قال الواقدى (مغازى ٣/ ٩٠٢) : « قالت أم عمارة : لما كنا يومئذ

والناس منهزمون فى كل وجه وأنا وأربع نسوة ، فى يدى سيف لى صارم ، وأم سليم معها خنجر قد حزمته فى وسطها ـ وهى يومئذ حامل بعبد الله بن أبى طلحة ـ وأم سليط ، وأم الحارث قالوا : فجعلت تسله (يريد السيف) وتصيح بالأنصار : أية عادة هذه ؟ مالكم وللفرار ؟ قال : وأنظر إلى رجل من هوازن على جمل أورق معه لواء يوضع جمله فى أثر المسلمين ، فأعترضه فأضرب عرقوب الجمل ، وكان جمله مشرفا (أى: عاليًا) وأشد عليه ، لم أزل أضربه حتى أثبته ، وأخذت سيفًا له، وتركت الجمل يخرخر ، فيصفق (أى : يتقلب) ظهراً لبطن ، ورسول الله قائم مصلت السيف بيده ، قد طرح غمده ، ينادى : يا أصحاب سورة البقرة ! وكَرَّ المسلمون فجعلوا يقولون : يابنى عبد الرحمن ! يا بنى عبد الله ! يا خيل الله ! وكان رسول الله ﷺ قد سمى خيله خيل الله .. فكرَّتْ الأنصار ، ووقفت هوازن حلب كذا ناقة فتوح (أى : واسعة الإحليل) ثم كانت إياها ، فوالله ما رأيت هزيمة كانت مثلها ذهبوا فى كل وجه»..

***

صور من عبقرية الرسول

فى معركة حنين وما بعدها

واستمع إلى أول خطبة خطبها رسول الله ﷺ عند الكعبة بعد فتح مكة ؛ لكى تقترب من فكر الرسول ـ صلوات الله عليه ـ وطريقته فى مخاطبة الناس ، قال الواقدى (٢ / ٨٣٥ ـ ٨٣٦) فقالوا : فلما أشرف رسول الله على الناس، وقد لـيط بهم حول الكعبة فهم جلوس ، قال : « الحمد لله صدق وعده ، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده ! ماذا تقولون ؟ وماذا تظنون ؟ قالوا : نقول خيراً ، ونظن خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم ، وقد قَدَرتَ ! فقال رسول الله ﷺ: فإنى أقول كما قال أخى يوسف : ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾

(يوسف/ ٩٢)

ونص الخطبة هنا واضح ، فإن رسول الله قال لهم : ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾ .

ونص ابن إسحاق فى هذه المناسبة اقرب إلى ما يمكن أن يكون قد حدث ، وهو أشهر عند الناس ، فقد ذكر جزءاً من الخطبة ، ثم قال : « يا معشر قريش ، ما ترون أنى فاعل لكم ؟ قالوا : خيراً ! أخ كريم وابن أخ كريم ! قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء» (٤ / ١٥٥) .

وقد أكثر الناس من ترديد عبارة « اذهبوا فأنتم الطلقاء » وقالوا : إنها مجرد دليل على كرم النبى وفضله ، وهى بالفعل كذلك ، ولكن لها ـ فى رأينا ـ معنى سياسيّا وعسكريّا ، فإن هذه الخطبة ألقيت بعد دخول الرسول ﷺ مكة بثلاثة أيام ، وكان من حقه كفاتح أن يُوقِع بأهل مكة المغلوبين ما يريد من عقوبات ، وكما فعل بأهل فدك مثلاً ، ولكن رسول الله تنازل بقوله : اذهبوا فأنتم الطلقاء ، ومعنى ذلك تنازله عن كل حق له على المكيين ، فقد عفا عنهم عفوا تامّا مطلقاً ، بل إن رجاله المسلمين لم يغنموا من مكة شيئاً ، حتى إنه اضطر ـ كما رأينا ـ إلى أن يستقرض مالا من كفار مكة ؛ ليعطى الفقراء من رجاله ، فكأنه ﷺ قد اشترى كرامة مكة وقريش بماله ، وهنا نرى أن رسول الله أثبت فى هذه المناسبة أنه أكرم وأنبل مما يستطيع أن يتصوره أى إنسان ، فهو لم يكتف بالعفو عن القرشيين ، بل

تحمل من ماله ما كان ينبغى أن يتحملوه من العقاب ، وذلك كله كان بُعد نظر من رسول الله ﷺ ؛ فقد كان يعرف أن قريشاً بعد إسلامها ستكون ذات خير كثير على الإسلام ، وإذا كان القرشيون لم يعرفوا رسول الله حق المعرفة قبل فتح مكة فهم الآن يعرفونه ويرون أنه أعظم وأكرم مما ذهبت إليه ظنون المحسنين منهم ، وهذا المعنى العظيم غاب عن الواقدى عندما أسقط من نص خطابه هذه العبارة الهامة ، ثم نستطرد بعد ذلك فى ذكر بقية الخطبة من نص الواقدى فهو أبلغ الناس حديثاً عن المغازى . قال : « ألا إن كل رباً فى الجاهلية أو دم أو مال أو مأثرة فهو تحت قدمى هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج » ولابد أن نلاحظ كيف أن رسول الله قد ألغى هنا كل رباً فى الجاهلية ، وقد ألغى بذلك مالا كثيراً ، فقد كان القرشيون رجال مال ، وما منهم إنسان إلا كان له مال ورباً عند الآخرين ؛ ولهذا فقد قدَّم رسول الله إسقاط الربا على إسقاط الدم أو المال أو المأثرة ، وهى الفضل ، أما قوله ﷺ : « فهو تحت قدمى هاتين » فهى عبارة كانت شائعة بين الناس إذ ذاك ، ومعناها أن قائلها يتنازل عن كل حق له عند الآخرين .

أما قوله : « إلا فى قتيل العصا والسوط الخطأ شبه

العمد» فقد كان من عادة الناس إذا قتل رجل رجلاً فى ضرب بالعصا أو السوط أن يقول ـ إذا أراد ـ : إنه مات خطأ ، وذلك غير ممكن ، فمادام الإنسان قد رفع عصاه أو سوطه على غيره فهو مسئول عنه ، وهو إذا مات فى هذه الحالة فلا اعتذار عن موته ، والقتل هنا يكون عمداً ، ولا يمكن أن يكون خطأ .

ثم يقول رسول الله ﷺ : « الدية مغلظة ، مائة ناقة ، منها أربعون في بطونها أولادها » وهذه قاعدة قانونية قررتها أمة المدينة ، ويريد رسول الله ﷺ أن تستقر فى مكة حتى لا يلجأ الناس إلى المساومات فى تقدير دية القتيل .

فإذا أداها القاتل ورضى بها أهل القتيل كان بها .

وإلا فلابد أن يقتل القاتل إذا ثبت أن القتل تم عمداً وبعد تدبير ، ثم يقرر رسول الله أن المساواة بين البشر أساس فى أمة الإسلام ، وذلك حيث يقول : « إن الله قد أذهب نخوة الجاهلية وتكبرها بآبائها ، كلكم من آدم ، وآدم من تراب ، وأكرمكم عند الله أتقاكم » .

ثم يقول رسول الله ﷺ : « ألا إن الله حرم مكة يوم خلق الله السموات والأرض بحرمة الله ، لم تحل لأحد قبلي ، ولا تحل

لأحد كائناً بعدي ، ولم تحل لي إلا ساعة من النهار - يقصرها رسول الله ﷺ بيده هكذا - لا يُنَفَّرُ صيدها ، ولا يعضَدُ عضاها ، ولا تحل لقطتُها إلا لمنشد (أى أن التقاط الضائع على أرضها لا يحل إلا لصاحبه الذى ينشده) ولا يُختلى خلاها »(أى : لا يقطع نباتها الرطب الرقيق) ثم استثنى رسول الله من ذلك الإذخر ، وهو نبات صغير حسن الرائحة ، كان الناس يضعونه فى القبور وفى البيوت ، كما نفعل نحن اليوم بالنعناع مثلاً .

ثم يقرر رسول الله بعض القواعد الإسلامية الفقهية التى يريد أن يتبعها القرشيون : «ولا وصية لوارث » (أى أن الإنسان لا يستطيع أن يورث أمواله كما يريد ، بل لابد أن يتبع قواعد الميراث فى الإسلام) « ولا يحل لامرأة تعطي من مالها إلا بإذن زوجها » ويلاحظ أن المراد هنا الإعطاء كرماً وفضلاً ، وليس الإنفاق فى شىء بعينه ، فإذا أرادت المرأة أن تشترى بمالها بيتاً مثلاً فلا دخل لزوجها فى ذلك ، وبعد ذلك نجد أن رسول الله ﷺ يثبت هنا قاعدة تقررت فى الصحيفة التى كتبها رسول الله بين المهاجرين والأنصار وحلفائهم لأول دخوله المدينة ، قال : « والمسلم أخو المسلم . والمسلمون إخوة ،

والمسلمون يد واحدة على من سواهم تتكافأ دماؤهم ، يريد عليهم أقصاهم (أى : ينزل بهم أى مسلم آخر من بعيد ضيفاً كريماً) « ويعقد عليهم أدناهم » (أى يجير عليهم أصغرهم) « ويُشدهم على مُضعِفهِم » (أى أن القوى من الغزاة من المسلمين يساهم الضعيف فيما يكسب من الغنيمة) «وميسرتهم على قاعدهم . ولا يقتل مسلم بكافر ، ولا ذو عهد في عهده ،ولا يتوارث أهل ملتين مختلفتين ، ولا جلب ولا جنب » وهذه قاعدة إدارية إسلامية يفسرها الرسول ﷺ فيما يليها قال : « ولا تؤخذ صدقات المسلمين إلا في بيوتهم وبأفنيتهم » (أى أن جامع الصدقات لا يجوز له أن يستقر فى مكان ويطلب إلى الناس أن يوافوه بصدقاتهم فيه ، بل لابد أن يتجه إليهم بنفسه)

وقد تركت فى كلامى هذا قول رسول الله ﷺ : « **وإن الولد للفراش وللعاهر الحجر** » نظراً لأنه معروف ومشهور ، أى الولد لا ينسب إلا لأبيه المتزوج ، أو للسيد الذى ينكح جاريته ، أما الزانى فلا ينسب إليه ولد ، ثم تجىء بعد ذلك بضعة أحكام خاصة بالنساء : « **ولا تنكح المرأة على عمتها أو خالتها ، ولا تسير امرأة مسيرة ثلاث إلا مع محرم** » .

ويقول الرسول ﷺ : « والبينة على من ادعى واليمين على من أنكر ، ولا صلاة بعد العصر وبعد الصبح » . وإنما عنيت بأن أورد هنا أهم ما قاله رسول الله لأهل مكة بعد أن صارت مدينة إسلامية .

وكان الكثيرون من أهلها كفاراً لم يسلموا بعد ، فأراد الرسول أن يعلم أهل البلد مسلمين وغير مسلمين ببعض القواعد الإسلامية فى المعاملات . وهذا يكشف لنا عن جانب «المعلم » فى رسول الله ﷺ ؛ فقد كان بطبعه معلماً ومرشداً إلى الخير .

وإليك بعض أوصاف لرسول الله فى فقرات متعددة من مغازى الواقدى ، قال أبو الطفيل بن واثلة :

رأيت رسول الله ﷺ يوم فتح مكة فما أنسى شدة بياضه وسواد شعره ، وإن من الرجال من هو أطول منه . ومنهم من هو أقصر منه ، يمشى ويمشون حوله (٢ /٨٦٧) .

وكانت أم هانئ (ابنة عم رسول الله ﷺ وهى أخت على بن أبى طالب ، وكان رسول الله يمكث أحياناً فى بيتها بعد موت خديجة أم المؤمنين ، رضى الله عنها) تقول : ما رأيت أحداً كان

أحسن ثغرا من رسول الله ﷺ وما رأيت بطن رسول الله إلا ذكرتُ القراطيس المثنية بعضها فوق بعض - تعنى عُكنَهُ - (والعكن : ما انطوى وتثنى من لحم البطن) وقد رأيته دخل يوم الفتح قد ضفر شعره بضفائر أربع .

وقالت أم سلمة أم المؤمنين : «ضفرت رأس النبى بذى الحليفة (جنوبى المدينة بقليل) أربع ضفائر فلم يحله حتى فتح مكة ومقامه بمكة ، حتى حين أراد أن يخرج إلى حُنين حَلّهُ (أى حل شعره) وغسلت رأسه بسدر » .

والغالب أن معركة حنين كانت أعنف معركة خاضها رسول الله ﷺ : ذلك أن مالك بن عوف النصرى شيخ هوازن يوم ذاك ، وكان شابّا ، كان قد حشد هوازن كلها ورتبها ترتيباً متقناً ، وقال : إن رسول الله لم يلق إلى ذلك الحين قوماً يعرفون الحرب؛ ولهذا انتصر ، وكان مالك بن عوف يومئذ فى ثلاثين سنة ، فظن أنه مع جموعه يهزم محمداً ﷺ ورجاله ، وأحسن صف جنوده وفرسانه ، وانضمت إليه ثقيف ، فأوعبت كلها مع هوازن ، وقد أجمعوا المسير إلى المسلمين ، فوجه الثقفيون إلى ذلك سراعاً وقالوا : قد كنا نهم بالمسير إليه ونكره أن يسير إلينا ، ومع ذلك لو سار إلينا لوجد حصناً حصيناً نقاتل دونه

وطعاماً كثيراً حتى نصيبه أو ينصرف ، ولكنا لا نريد ذلك ونسير معكم ونكون يداً واحدة ، وكان السبب فى مسير هوازن وثقيف أنهم رأوا بعد هزيمة قريش ودخول رسول الله ﷺ مكة أن رسول الله ﷺ سائر إليهم ولاشك ، وقد اغتر مالك بن عوف النصرى بنفسه وقومه ، ورفض رأى دريد بن الصمة شيخ جشم من بنى كنانة ، وكان رجلاً مسنًا ، وكان مالك بن عوف مسرعاً فى مسيره ، وقد سبق أن قلنا : إن فتح مكة كان فى ٢٠ من رمضان سنة ٨هـ وأقام الرسول ﷺ بمكة خمسة عشر يوماً . ثم غدا يوم السادس من شوال فسار إلى حنين فى اثنى عشر ألفاً من المسلمين : عشرة آلاف من أهل المدينة وألفين من بنى سليم وأهل مكة ، وهؤلاء الألفان هم الذين فروا ساعة هجم عليه رجال هوازن وثقيف ؛ لأنهم لم يتمرنوا على القتال على يد رسول الله ﷺ كما كان شأن أهل المدينة ، وكان انهزام أهل مكة وسليم قد أذهل أهل المدينة ، ففر الكثيرون منهم ، وثبت رسول الله ﷺ فى نحو مائة من أنصاره ، وأمر أصحابه أن ينادوا المهاجرين والأنصار ، فلما سمعوا النداء عادت إليهم قلوبهم وعادوا إلى القتال بالخبرة التى كسبوها والشجاعة التى كانت خلقاً فيهم ، فلم يلبث أعداؤهم أن فروا من وادى حنين إلى سهل

أوطاس ، وقد وصف لنا أنس بن مالك هذه المعركة فقال (مغازى الواقدى ٣/٨٩٧) :

« لما انتهينا إلى وادى حنين ـ وهو واد من أودية تهامة له مضايق وشعاب ـ فاستقبلنا من هوازن شىء ، لا ـ والله ـ ما رأيت مثله فى ذلك الزمان قط من السواد والكثرة ، قد ساقوا نساءهم وأموالهم وأبناءهم وذراريهم ، ثم صفوا صفوفاً ، فجعلوا النساء فوق الإبل وراء صفوف الرجال ، ثم جاءوا بالإبل والبقر والغنم فجعلوها وراء ذلك ؛ لئلا يفروا بزعمهم ، فلما رأينا ذلك السواد حسبناهم رجالاً كلهم ، فلما تحدرنا فى الوادى فبينا نحن فى غلس إذ شعرنا إلا بالكتائب قد خرجت علينا من مضيق الوادى وشعبه ، فحملوا حملة واحدة ، فانكشفت أول الخيل ـ خيل سليم ـ مولية فولوا ، وتبعهم أهل مكة ، وتبعهم الناس منهزمين ما يلوون على شىء ،

قال أنس : فسمعت رسول الله ﷺ والتفت عن يمينه ويساره والناس منهزمون ! وهو يقول : يا أنصار الله وأنصار رسوله ! أنا عبد الله ورسول صابر ! قال : ثم تقدم بحربته أمام الناس ، فوالذى بعثه بالحق ما ضربنا بسيف ولا طعنًا برمح حتى هزمهم الله ، ثم رجع رسول الله ﷺ إلى العسكر ، وأمر أن يقتل

من قدر عليه منهم ، وجعلت هوازن تولى ، وثاب من انهزم من المسلمين .

وهكذا نرى كيف ثبت رسول الله والناس منهزمون ، وكان ثباته هذا سبباً فى عودة المنهزمين ، ولم يكونوا قد انهزموا خوفاً أو جُبْنًا ، ولكن دهتهم المفاجأة ، فلما ثبت رسول الله وجعل عمه العباس يناديهم ثَابَتْ إليهم نفوسهم فعادوا فى قوة وحماسة . وقد وصف أنس بن مالك عودتهم فى عبارة جميلة ، وذلك حيث يقول : « فرجعت الأنصار وهم يقولون : الكرة بعد الفرة ، قال : فعطفوا عطفة البقر على أولادها حتى إنى لأخاف على رسول الله ﷺ رماحهم أشد من خوفى من المشركين ، يؤمون الصفوف ويقولون : يالبيك ! يا لبيك ! فلما اختلطوا واجتلدوا (أى : ضربوا بالسيوف) ورسول الله ﷺ قائم على بغلته فى ركائبه يقول : اللهم إنى أسألك وعدك ، لا ينبغى لهم أن يظهروا . ثم قال للعباس : ناولنى حصيات ، فناوله حصيات من الأرض ، ثم قال : شاهت الوجوه . ورمى بها وجوه المشركين ، وقال : انهزموا ورب الكعبة »

وواضح أنه لولا ثبات رسول الله وتعريضه نفسه للخطر لدارت الدائرة على المسلمين .

ومع ذلك فانظر إلى فهم الرسول ﷺ لطبيعة المسلمين وطبيعة المعركة كلها فى ذلك الخبر الذى يرويه بعد ذلك أنس ابن مالك قال : إن أم سليم ـ أمى ـ ابنة ملحان جعلت تقول : يا رسول الله ، أرأيت هؤلاء القوم الذين أسلموك وفروا عنك وخذلوك ؟ لا تعف عنهم ، إذا أمكنك الله منهم فاقتلهم كما تقتل هؤلاء المشركين ، فقال : يا أم سليم ، قد كفى الله ، عافية الله أوسع ، ومعها يومئذ جمل أبى طلحة (بن عبيد الله من بنى عبد الدار) قد خشيت أن يغلبها فأدنت رأسه منها ، فأدخلت يدها فى خزامته مع الخطام ، وهى شادة وسطها ببرد لها ، ومعها خنجر فى يدها ، فقال لها أبو طلحة : ما هذا معك يا أم سليم ؟ قالت : خنجر أخذته معى ، إن دنا منى أحد من المشركين بعجته به ، فقال أبو طلحة : ما تسمع يا رسول الله ما تقول أم سليم ؟ (مغازى الواقدى ٣/ ٩٠٤) .

وإذا رأيت أن ترى كرم رسول الله وفضله على من معه من المسلمين فاقرأ تفاصيل عودة رسول الله ﷺ من حصار الطائف دون أن يفتحها ، فقد سرى ثباتهم فى الطائف وعدم تفكيرهم فى الانصراف عن الحصار إلا أن يأذن بذلك الرسول ، حتى قتل منهم اثنا عشر رجلاً وجرح آخرون ، وفى عودته من الطائف

كان يسير وإلى جنبه أبو رهم الغفارى على ناقة له وفى رجليه نعلان غليظتان ، فوقع حرف نعله على ساق الرسول ﷺ فأوجعه ، فقال له : أوجعتنى ! أخر رجلك . وقرع رجله بالسوط ، وخاف الرجل من ذلك خوفاً شديداً ، فقد أوجع الرسول ﷺ دون أن يعلم أن الرسول ﷺ فكر فيما فعل من ضرب رجله بالسوط ، فلما روحت الركاب سألت ، فقالوا : طلبك رسول الله ﷺ ، فجئته وأنا أترقب ، فقال : إنك أوجعتنى برجلك فقرعتك بالسوط ، فخُذْ هذه الغنم عوضاً عن ضربتى ، قال أبو رهم : فرضاه عنى كان أحب إلى من الدنيا وما فيها (مغازى الواقدى ٣/ ٩٣٩) .

وحدث مثل هذا مع عبد الله بن أبى حدرد الأسلمى ، فقد لصق بناقته برسول الله ﷺ ، فأصيبت رجل الرسول ﷺ فقال : أخ ! أوجعتنى ! فرفع رجله من الغرز كأنها جُمَّارَةٌ (أى : بيضاء شديدة البياض) ودفع رجله بمحجن فى يده ، فمكث ساعة لا يتحدث ، فوالله ما نزلت حتى ظننت أنه سينزل فِىَّ عذاب ، وقال عبد الله بن أبى حدرد بعد ذلك : ثم جاء بعد ذلك رجل من قريش يبتغينى . قال : فخرجت خائفاً حتى واجهت رسول الله ﷺ فجعل يبتسم فى وجهى ، وقال : أوجعتك بمحجن

البارحة . ثم قال : خذ هذه القطعة من الغنم ، قال : فأخذتها فوجدتها ثمانين شاة ضائنة (والضأن من الغنم ذو الصوف ، والأنثَى ضائنة) (نفس المرجع ٣/ ٩٤٠) .

وتتجلى إنسانية الرسول فى خبر يرويه سراقة بن جعشم يقول : إن إبلاً ضالة دخلت فى غنمه ، فسقاها ، ثم لقى رسول الله ﷺ وقال : يا رسول الله ، أرأيت الضالة من الإبل تغشى حياضى وقد ملأتها لإبلى ، هل لى من أجر إذا أسقيتها ؟ فقال رسول الله ﷺ : نعم فى كل ذى كبد حَرَّى (أى : عَطْشَى من الحر) أجر .

وعندما كان الرسول ﷺ عائداً من الطائف إلى المدينة تكاثرت الأعراب يسألونه ولم يكن معه شىء يعطيهم إياه ، قال الواقدى (٣/ ٩٤٢) : وكثروا عليه حتى اضطروه إلى سمرة (نوع من الشجر) فخطف (الأعراب) رداءه فنزعته عن مثل شقة القمر ، فوقف رسول الله ﷺ وهو يقول : أعطونى ردائى ! أعطونى ردائى ! لو كان عدد هذه العضَاه (أى النباتات) نَعَمًا لقسمته بينكم ، ثم لا تجدونى بخيلاً ولا جباناً ولا كذاباً . ثم لما كان عند القسم (أى : قسم المغانم) قال : أدوا الخياط والمخيط (والخياط : الخيط ، والمخيط : الإبرة) وإياكم والغلول (أى

استيلاء الرجل على شيء من المغنم لنفسه) فإنه عار ونار وشنار (أى : عيب) يوم القيامة ، ثم أخذ وبرة من جنب بعيره فقال : والله لا يحل لى مما أفاء الله عليكم ولا مثل هذه الوبرة إلا الخُمس ، والخمس مردود عليكم (مغازى الواقدى ٣/ ٩٤٣).

ثم انظر إلى الإنسانية التى كان الرسول ﷺ يعامل بها الناس ليعلمهم ، فقد حكى حكيم بن حزام أنه سأل رسول الله ﷺ أن يعطيه من مغانم هوازن ثلاث مرات مائة من الإبل فأعطاه ، ثم قال رسول الله ﷺ : « يا حكيم بن حزام ، إن هذا المال خضرة حلوة فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه ، ومن أخذ بإشراف نفس (أى بطمع) لم يبارك له فيه . وكان كالذى يأكل ولا يشبع، واليد العليا خير من السفلى ، وابدأ بمن تعول. قال : فكان حكيم يقول : والذى يعثك بالحق لا أرزأ (أى : لا أسأل) أحداً بعدك شيئاً . فكان عمر بن الخطاب يدعوه إلى عطائه ، فيأبى أن يأخذه ، فيقول عمر : أيها الناس إنى أشهدكم على حكيم أنى أدعوه إلى عطائه فيأبى أن يأخذه ، قال : حدثنا ابن أبى الزناد قال : أخذ حزام المائة الأولى ثم ترك (مغازى الواقدى ٣/ ٩٤٥) .

ثم انظر إلى هذا الخبر لترى بُعْدَ نظر رسول الله ﷺ وإنسانيته . قال الواقدى (٣/ ٩٤٨) :

قال سعد بن أبى وقاص : يا رسول الله أعطيت عُيَيْنَةَ بن حصن والأقرع بن حابس مائة مائة ، وتركت جعيل بن سُراقة الضمرى (وكان عيينة والأقرع من لئام الكفار الذين أسلموا طمعاً ، أما جعيل بن سُراقة الضمرى فكان من كبار المؤمنين) فقال رسول الله ﷺ : أما والذى نفسى بيده لجُعَيْلُ بن سراقة خير من طلاع الأرض كلها (بكسر الطاء ، وطلاع الأرض : ما يملؤها حتى يطلع عنها ويميل) مثل عيينة والأقرع ، ولكن تآلفتهما ليسلما ، ووكلت جُعيْلَ بن سُراقة إلى إسلامه .

وهذا مثل من كثير جدّا على بُعْدِ نظر الرسول وإدراكه التام لمسئوليته كنبى ، والواقع أنه كان يعرف أن عيينة بن حصن والأقرع بن حابس منافقان ولا يعتقد بهما ، ولكن وراء كل منهما كانت قبيلته التى أسلم معظمها ، ولكنه لو آذى واحداً منهما لتحمست له قبيلته ؛ لأن الناس كانوا لا يزالون قريبين من الجاهلية .

وبعد : فقد اقتربنا فى هذه الفصول من رسول الله ﷺ ، ورأيناه كأننا ننظر إليه بعيوننا ، وهذا هو الذى قصدت إليه ،

فقد شبعنا فيما أعـتقد من صورة رسول الله ﷺ كما صورها ابن هشام فى إعادة تحريره لنص ابن إسحاق .

وعن سيرة ابن هشـام أخذ معظم من كتـبوا عن الرسول فى عصرنا الحـديث من محمد حسيـن هيكل إلى الشرقاوى ومن هم أقل منهمـا ، وأرجو أن أكون قـد وفقت فيـما قصـدت إليه ، والله سبحانه مستعان على كل خير .

تم بحمد الله

***

obeikandl.com